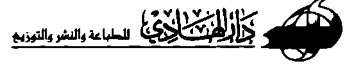
مقدمة في

اسلامية المعرفة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م



هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi1@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

قضايا اسلامية معاصرة

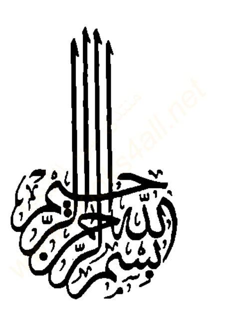
طه جابر العلواني

مقدمة في

اسلامية المعرفة






بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أما بعد، فهذه مجموعة محاضرات كانت قد القيت في دورة مكثفة وقصيرة في السودان، عقدتها وزارة التعليم العالي (ادارة التأصيل) بالتعاون مع «المعهد العالمي للفكر الاسلامي» في خريف عام ١٩٩٦ لاساتذة الجامعات السودانية. الذين قررت وزارة التعليم العالي اعدادهم اساتذة للتأصيل واسلام المعرفة في الجامعات السودانية. ودعت المؤلف لالقاء هذه المجموعة من المحاضرات ومناقشتها مع خمسين استاذاً من هؤلاء، تم انتخابهم من بين ٢٥ جامعة من الجامعات السودانية. وقد استضافت (جامعة الجزيرة) في السودان بناءً على رغبة وزارة التعليم العالي هذه الدورة وعقدتها في «معبد اسلام المعرفة» وهو المعهد الذي أسسه مجموعة من الاساتذة السودانين وفي مقدمتهم استاذ الاقتصاد الدكتور محمد الحسن بريمة والاستاذ بجامعة الجزيرة. فعقدت هذه الدورة والقيت فيها هذه المحاضرات، وكان يفترض ان تضم اليها سائر الاسئلة والمناقشات والحوارات التي ابداها الاساتذة الخمسون، ولكن يبدوا ان الخلل الفني في بعض التسجيلات لم يسمح بتحقيق هذا، فتقرر طبع

هذه المحاضرات مصدّرة بالمحاضرة الاولى التي تقدم بها الاستاذ الدكتور احمد ابراهيم عمر وزير التعليم العالي ورئيس قسم الفلسفة بجامعة الخرطوم سابقاً، ولذلك فان المطلع عليها يجد ان لغة الخطاب والمشافهة هي لغة المحاضرة وليس لغة القلم والكتابة. كما ان علمية التوثيق في هذه المحاضرات كانت عملية تالية لعملية تفريغها من الاشرطة. ولاثراء الانتاج في هذه القضية تقرر ان تطبع هذه المحاضرات ولو من غير اعادة صياغتها وسبكها من جديد لازالة الفروق ما بين المشافهة والكتابة، رغبة منا في تعميم الفائدة منها واتاحتها بين ايدي المهتمين في هذا المجال.

لاشك ان لغة المشافهة والظروف التي القيت فيها هذه المحاضرات تحكمت الى حد ما في اسلوب تقديمها وعرضها ومجالات تناولها وحتى بعض الامثلة التي ضربت فيها. ولعل من الجدير بالذكر ان هذه الدورة كان المفروض ان يحاضر فيها ثلاثة اشخاص وهم كل من: د. حسن الترابي و د. ابراهيم احمد عمر و د. طه جابر العلواني. ولانشغال الاولين فقد تحمل الأخير عبء هذه المحاضرات وحده ماعدا المحاضرات الاولى. كما ان هناك نقطة طريفة اخرى جديرة بالاشارة وهي ان د. حسن الترابي رفع اعتراضاً حول مصطلح «اسلمة المعرفة» و «اسلامية المعرفة» وابدى كثيراً من الاستدلالات على ان الاصوب عنده استعمال مصطلح أي «اسلام المعرفة» تحاشياً من استخدام المصدر الصناعي «اسلمة» أو النسبة أي «اسلامية» وما قد يكون فيها من ايحاءات وقد استجاب لذلك الاخوة في جامعة الجزيرة فغيرواسم المعهد الى «معهد اسلام المعرفة» بدلاً من «معهد اسلامية المعرفة» وربما شجعهم على ذلك ان الكلمة الرمزية التي تألفت

من حروف التسمية الجديدة صارت «إمام» واصبح معـــهد «إمــام»، وهــذا المعهد يمنح درجة الماجستير والدكتوراه انطلاقاً من عمليــة الاســلمة الــتي تحوّلت الى «التأصيل» في السودان اخذت طابعاً وتوجهاً ذا لمسات سودانية خاصة، مما يدل على ان الاسلمة أو التأصيل أو اسلام المعرفــة أو توجيــه المعرفة وجهة اسلامية كل هذه المصطلحات تنم عن الالتقاء حول المضمــون الواحد الذي يمكن تلخيصه بتقديم «المعرفة» انطلاقاً مــن نظريــة «المعرفــة الاسلامية» لتحقيق اهداف الاسلام في المعرفة والمــادة الــربط بــين المعرفــة والقيم، وتقديم نظرية اسلامية متكاملة في قضايا المعرفة شاملة لمصادرهــا واهدافها وتصنيفها وتاريخها وعلاقتها بالقيم وانعكاســاتها علــى العقليــة والنفسية الانسانيتين؛ لاعادة تشكيل وبناء الشخصية السلامية.

وقد سبق للمؤلف ان قدم محاضرات مماثلة كنا نودّ ان نضمها الى هذه المحاضرات وذلك حينما قام بتدريس اســلامية المعرفــة لطلبــة الدراســات العليا في «الجامعة الاسلامية العالمية في ماليزيــا» عــام ١٩٩٧، حيــث قــدم سلسلة اخرى يبدو الخلاف واضحاً في طريقة التقديم والعرض وفي بعــض الافكار التوضيحية المطروحية فيها مراعاة للاختلاف بــين بيئــة الســودان وبيئة ماليزيا، وبين اساتذة متخرجين وبعض طلبة دراسات عليــا. ولعلنــا نجد فرصة اخــرى لتجميــع تلــك المحــاضرات وتقديمــها بشــكل مناســب للغرض ذاته، ألا وهو اثراء الكتابة في هذا المجال الذي لايــزال في حاجــة الى كثير من الدراسات والبحوث والمحــاضرات والحــوارات لتتضــح القضيــة. ولعلها بعد ذلك تصبح تخصصاً من التخصصات التي تتعامل معها العلوم كلها وتدخل فيها كفلسفة نظرية من ناحية، وكجــزء اســاس مــن مداخــل

العلوم ومقدماتها، توضح المنظور الاسلامي وتذكر الاساتذة والمدرسين به وتشير الى ضرورة معرفة «نظرية المعرفـــة» في الاســـلام بسائـر جوانبـها واقسامها وتوضيحها للطالبين.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.

طه جابر العلواني

١٩٩٩/٧/٦

مدخل

ماذا عن اسلامية المعرفة؟

اسلامية المعرفة تريد أن تنسب المعرفة للدين. لذلك عندما نتناول هذه القضية لا بد ان يكون في اذهاننا اننا سنواجه الاسئلة، فلا بد ان يكون عندنا ردّ عليها، رد مقبول، أو بالاحسن مفحم.

اذا انت ذهبت تتكلم عن نظرية المعرفة في جامعة غربية، ستجد ان المدرسة الغالبة الآن هي مدرسة منبثقة من النظريات والافكار التي اختلفت مع الكنيسة[1]. والمدارس الفكرية الموجودة في الجامعات الغربية التي تسود فيها نظريات للمعرفة، كانت نتاجاً طبيعيا للاختلاف الذي حدث بين العلماء والكنيسة.

طبيعة الخلاف بين العلماء والكنيسة

ان العلماء الذين قاتلوا الكنيسة لم يكونوا في الاساس علماء اجتماع ولا علماء انسانيات[2]. والخلاف الذي حصل بين العلماء والكنيسة كان في

---

(١) هذه المدارس اندرجت تحت التيار العلماني الذي اختلف مع الكنيسة، وقوض نظامها اللاهوتي واستبعد الوحي من الاطار المعرفي واعتبر الحس وحده مصدرا للمعرفة وعمل على احلال النسبية محل المطلق.

(٢) لم يكن المختلفون مع الكنيسة علماء اجتماعيات أو انسانيات في ذلك الزمان، بل

الاساس خلافا بين الكنيسة والعلم الكوني. لكن هذا الخلاف الذي نشأ بين علماء الفيزياء او الفلك والكنيسة كان اثره قوياً بحيث انه شمل فيما بعد كل العلوم.

لقد اختلفوا حول الارض وموقعها ودورانها[1]. وقالت الكنيسة قولا وقالوا هم قولا آخر، ولكن بتقدم وسائل العلم والمعرفة صح قولهم وأخطأت الكنيسة، لذلك قالوا الكنيسة ادعت انها تعرف، وهي حقيقة لا تعرف، وهذا الكلام ينطبق على قول الكنيسة في كل المجالات.

قالوا : فقدنا الثقة في كل كلام تقوله الكنيسة لانها كانت تقول ان هذا هو كلام الرب، أو هذا هو الكلام الالهي، أو هذا هو الكلام الصحيح، وما دام هذا هو الكلام الديني، فلنفكر وننظر ونصل للحقائق العلمية بطريق آخر غير طريق الدين.

وانما كان الصراع بين علماء الطبيعيات مثل كوبرنيكس وجاليلو وغيرهما، ولكن عندما ساد المنهج الوضعي عن طريقة فرانسيس بيكون امتدت منهجيته الى العلوم الانسانية والاجتماعية، وحاول اخضاع الظواهر الاجتماعية للتجريب التماسا لتحقيق العلمية، ولا شك ان التجريب يؤدي للكشف عن الحقائق ولكن الوضعية لا تستعمله لانه اداة معرفية صالحة وانما لسد الطريق امام التفكير الديني واعتبار النموذج الوضعي هو السلطة المرجعية للعلوم الانسانية (انظر منهج البحث الاجتماعي، ص ٥٣ ـ ٥٤).

(١) قام العداء محتدما بين الكنيسة التي كانت تمارس اسلوبا دوغمائيا في فرض آرائها وبين العلماء الطبيعيين حول مركز الكون فقد حاول كوبرنيكس ان يثبت ان الشمس هي مركز الكون وليس الارض كما كانت تدعى الكنيسة فعارضته الكنيسة بشدة وحكمت عليه بالالحاد.

سيادة المنهج التجريبي الوضعي

الطريق الآخر الذي ليس فيه الدين هو طريق يعتمد على قدرات الانسان فقط، فطريق الوحي والدين تبين خطؤه وهو طريق الكنيسة اللاهوتي، والذي ابان هذا الخطأ هو القدرات الانسانية التي جاءت بعلم عن هذا الكون وكان صحيحاً.

الطريقة الانسانية هي الطريقة التي تعتمد على قدرات الانسان، الانسان يلاحظ، يجرب، يفكر... المعرفة اذاً هي نتاج الحياة.

هذه هي الاشياء التي يدركها الانسان حسيا، لانه يلاحظ ويجرب ويحدد المنهج التجريبي ولانه يفكر ادخلت المعطيات العقلية أو الرياضية أو المنطقية في هذا الاطار؟ انها تبدأ من المدركات الحسية للانسان. وتخضع للتجربة وللتفكير الانساني المستغل لادوات المنطق والرياضيات. لا معرفة تخرج من هذا الاطار. هذا هو مثل كلام الكنيسة ليس فيه معنى.

اضواء على المنهج الوضعي للعلوم الاجتماعية

واستمرت هذه المدرسة للقرنين الماضيين في مجال الفلسفة ومجال فلسفة العلوم على وجه الخصوص. ولكنها امتدت وشملت ايضاً المجال الاجتماعي والانساني، لماذا؟

لانه عندما تقطع الصلة مع الدين ومعطيات الوحي، وتنظر لهذا الكون على اساس انه هو ما يدرك بالحواس ويجرب ويعقلن فاننا نجد ان الكون هذا ايضاً يشمل المجموعات الانسانية.

ولأن العلوم الكونية قد سلكت هذا السبيل كلها فقد سعت العلوم الانسانية في ان تحذو حذوها واصبحت حمى اصابت علماء الاجتماعيات والانسان كي يكونوا مثل علماء الكون والطبيعة. وفترة القرن السابع عشر والثامن عشر شهدت تقدما علمياً كبيراً. وهذا كله في خصام مع الكنيسة وباعتماد كامل على التحديد الذي ذكر لموضوعات المعرفة، وباتخاذ المنهج الذي ذكر لتحصيل المعرفة وباستعمال اللغة.

تحديد موضوعات المعرفة

وهذه قضية اخرى هامة فباستعمال اللغة الفنية التي يستعملها هؤلاء العلماء في مجال العلوم الكونية، فقد صاحب هذا التقدم تقدم كبير في نفس الوقت في مجال العلوم البحتة والرياضيات والمنطق، إذ شهد القرن الماضي تقدما كبيراً في مجال الرياضيات والمنطق، والرياضيات والمنطق يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بعلوم اللغة، لذلك ايضاً ازدهرت علوم اللغة بازدهار المنطق والرياضيات واصبحت هناك جبهة عريضة، تقوم على تحديد الموضوعات لان هذه الموضوعات المدركة حسياً، وهذه الوسيلة التجريبية، وهذه الادوات الرياضية المنطقية اللغوية، جبهة رهيبة، اكتسحت، تقدمت... واصبحت النموذج الذي يحتذى؛ لذلك بدأ علماء الاقتصاد يقولون علم الاقتصاد، وعلماء الجغرافيا يقولون علم الجغرافيا وانه لا بد ان ينتقل قسم الجغرافيا الى قسم العلوم.

بدأ الاجتماعيون يقولون العلوم الاجتماعية وعلماء الانسانيات يقولون العلوم الانسانية. فقد ادخلت كلمة علم هذه كجزء من التسمية لكل مجال من المجالات، ومحاولة للوصول الى نفس ما وصل اليه علماء العلوم

الكونية، التي رأوا فيها القدوة، ولذلك اصبحت العلـــوم كلـها تسـعى هـذا المسعى الذي يرتبط بالتجربة والمدركات العقلية.

نشوء الرؤى الكلية بمعزل عن الوحي واقصاؤه كمصدر للمعرفة

اضف الى ذلك الفشل الذي لحق بالكنيسة واطروحات الكنيسة التي أدت ببعض المفكرين والفلاسفة، لكي يبحثوا عن رؤى وفلسفات لهـذه العلـوم الجديدة يريدون ان يضعوا التجربة والعقلانية والوسائل الـتي ذكرتـها في اطار رؤية متكاملة، فنشأت وازدهرت فلسفات مادية، لان هـذه الفلسـفات لا بد منها في النهاية لنسيج متكامل للمعرفة. واصبح الكلام عن اي شـــيء يعطى مصدرا للمعرفة سوى هذا الكلام لا ينظـر اليـه قـط، هـذه اصـول تحددت.

تقسيم القضايا الى علمية وغير علمية

المرحلة التالية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين هي مرحلة اخراج تفصيلات هذه الرؤية الكلية،ولذلك تطرح اسئلة عن كيفية التأكد مـن صحة القضية التي تصف أو تخبر، وتستمر نظرية المعرفة تبحث عـن كيـف نحسم القضايا المعروفة عندنـا الى قضيـة علميـة وقضيـة غـير علميـة، لان الناس يتحدثون ويدعون انهم ينقلون معرفة بهذا الحديث. فكيف نفرق بـين قضية تحمل معرفة وبين قضية لا تحمل معرفة، تدعى ذلك ولكن لا تحمـل؟ فانشغل الناس بهذه القضية، في هذا الاطار الذي يبعد الدين.

فظهرت المشاكل التي لا بد ان تظهر... العلم المـادي الـذي بـني علـى هـذا الاساس واصبح قدوة يعتمد في اساسه على نوع من القضايا التي لا تنصـاع

لهذه الاحكام. القانون الطبيعي في الفيزياء مثلا يقول اذا فعلت كذا حدث كذا.

هذا القانون الطبيعي شكّل مشكلة لهذه النظرة التي بعدت عن الدين. لان القواعد التي وضعت لتصنيف القضايا الى علمية والى غير علمية تخرج هذه القضية من العلمية. ان القضية العلمية قضية عندهم قابلة إلى التجريب اذا كانت القضية تصف شيئاً أو تخبر عن شيء ولا تكون قابلة للتجريب اذن هي قضية غير علمية. اي قانون عام لن يكون بهذه الصورة قابلاً للتجريب لانه يتكلم عن مجموعة كبيرة من الاحداث المتشابهة في الزمان والمكان المختلفين والتي لا يمكن ان تحصى وتجمع وتختبر كلها.

اشكاليات المنهج الوضعي

١ ـ الفشل في اثبات صحة القانون الطبيعي:

كيف نؤكد صحة القانون الطبيعي؟ انشغل العلماء و الفلاسفة بهذه القضية طيلة هذه السنوات، فوضعوا فيها النظريات... و الذي طرح في هذه القضايا، ايضا ان الاسلم للمحافظة على المنطلقات الاساسية لنظرية المعرفة هذه. اما ان تلغي الاساس المادي الذي قامت عليه أو تجد حلاً آخر.

فواحد من هذه المخارج ان لا اتحدث عن توكيد القضية أو عدم بطلانها، واستمرت ايضا هذه المدرسة الفلسفية في نظرية المعرفة تحاول ان تؤكد ان المعلومات هي هذه وان التجربة وادواتها المنطقية هي الاساس في تحصيل المعرفة، و بدلا من ان نقول «نوكد»، نقول: كيف نبطل هذه القضية. نحتفظ بها لنبطلها، هم يريدون المحافظة على القضايا الاساسية من مشكلة حدثت من داخلها هذه القضايا!

وهذا كله في تحاش كامل للعودة الى ما قد هرب منه بـالامس. لانـهم لا يريدون على الاطلاق ان يقال لهم ان انطلاقكم الاول لم يكن صحيحـاً. اي انتم عندما ظننتم ان باختلافكم مع الكنيسة و ترككم لها اخطأتم، والكنيسة اخطأت هي ايضا. فارجعوا للمصدر الصحيح والطريقة الصحيحة.

٢ ـ الفشل في اثبات الصحة الكلية للقضايا:

ايضا هذه المدرسة لم تفلح في حل الاشكالات المعرفية المتعلقة بهذا الفهم للمعرفة، لمصادر المعرفة، لمنهج المعرفة.

ولانهم غاصوا ايضا في مشاكل اخـرى، فقـد حـاولت مدرسـة جديـدة متولدة منهم ان تقول : الخطأ ليس في اعتبار التجربة و المدركـات العقليـة، ولا في استعمال الادوات التجريبية، ولا في النظـرة التـى تقـول ان المعرفـة يجب ان تكون هكـذا، وانمـا الخطـأ في اننـا حاولنـا ان نقـول ان القـانون الطبيعي اما ان يثبت نهائيا ـ وهذا فشـلنا فيـه ـ أو يبطـل نـهائياً بسـبب حادثة مضادة لما نقوم به. وهذا ايضـا خطـأ. القـانون الطبيعـي لا يمكـن التعامل معه هكذا، أو على الاقل ان التعامل معه هكذا سيهدد نظرية المعرفة عندهم فلابد ان يخرجوا الى شيء اوسع من القـانون وهـو الـذي نسـميه مجموعـة قوانـين، أو (النظريـة العلميـة). لانـه قـد اوضـح ان اعتبـارهم الملاحظة والتجربة و صياغة ذلك في لغة فنية لقضية مفردة أو التعامل مـع هذه القضية الكلية بهذه الصورة سيوصلنا الى طريق مسدود. و امـا ان لا يعرف كيف تبطل القضية أو للشك في ان قضية كلية تبطـل هكـذا بقضيـة فردية، وهذا الشك لديه اساس قوي في الواقع العلمي.

المهندسون يتعاملون مع قوانين في الميكانيكا والعلماء النظريون يعرفون

انها مضى عليها الزمن. نظرية باطلة في مستوى مـن المسـتويات... ولكـن بالرغم من هذا نستعملها؛ لان هذا البطلان ناتج عن كونها غير دقيقة دقـة كافية، ولا تصف الظاهرة الطبيعية وصفا دقيقاً بما فيه الكفاية.

هذا وجه بطلانها، و لذلك يمكن ان يصاغ قانون في الميكانيكا اكثر دقـة ويكون هو اكثر صحة واصدق وصفاً للحقيقة الكونية.

لكن بالرغم من هذا لم يتخل المهندسون عن القانون بصورتـه الاولى لان الدقة غير محتاج اليها في الجانب العملي. لكن لننظر للعالم النظري.. شـخص يريد ان يتكلم عن هذا صحيح وهذا باطل لا يمكن ان يقبل هذا القانون.

٣ ـ عدم الاعتراف بنقصان المصادر المعرفية لديهم:

اذن المحاولات المختلفة لرتق هذه النظرية وحل الاشـكالات كـانت دائمـا تؤدي من مرحلة الى مرحلة، ولكن دائما كانوا يحـاولون ان يتفـادوا الكـلام عن الاسس الاصلية (إن مصدر المعرفة ناقص)، لا مصدر ثابت، لا يريدون ان يتزحزحوا عن ان مصدر المعرفة هو اما هذه المدركات الحسية وإما هـذه المدركـات العقليـة وان الاداة في التحصيـل هـو هـذه الاداة الفنيـة المنطقيـة الرياضية، استمر هذا الحال في المدارس الغربية حتى منتصف هذا القرن.

٤ ـ محاولة رتق النظريات القديمة واصلاحها:

في منتصف هذا القرن ظهرت دراسات جديدة عـن المعرفـة دراسـات لا تتحدث عن قضية فردية، ولا عن قانون طبيعي، هكذا دائمـا تتحـدث عـن نظرة شاملة، فيها قوانين كونية كثيرة، فيها علاقات واسعة.. شبكة. واتجه التفكير المعرفى المعاصر الى نسق متكامل مترابط.. حتـى إذا انـت اخـترقت

جزءا منه فليس معناه انك اسقطته كله.

والتعامل مع القضايا المفردة والاحداث المفردة لايتم كما كانوا يظنون هم انفسهم قبل مئات السنين انك اذا وجدت قضية مضادة لما كانوا يطرحون فتنسف كل المشروع. المعرفة لم تكن هكذا ولا يتعامل مع الاشياء المضادة هكذا...

٥ ـ صعوبة تشكيل نظرية كونية متكاملة :

بدأت تحدث تغييرات في مفهوم نظرية المعرفة، واخذ بعض الناس يهتمون اكثر بمجموعات بعينها من العلماء، لان التشكيل المتكامل لنظرة كونية صعبت عليهم في إطار العالم المتخصص، ما وجدوا ـ كما كان قديما ـ فيلسوفا أو عالما يدعي انه يعرف كل العلوم.

لقد وجدوا مجموعات من العلماء والدارسين كل في مجاله، الفيزيائيين، علماء الطبيعة، و علماء الاجتماع، الاطباء، و هكذا.

قالوا: ان افضل شيء هو عمل دراسات تاريخية لمجموعات عاملة الآن في مجالها تعرف من حيث الواقع كيف نتحصل على المعرفة، بمعنى اننا بدلا من ان ننظر الى ان المعرفه تعرف هكذا، أو تتحصل هكذا و لا يستنسخ منها هكذا.. ولا يبنى عليها هكذا، من الافضل ان نرى هذه المجموعات العاملة نفسها و التى احرزت هذا التقدم العلمى.. كيف تعمل؟ لانهم يعتقدون ان هذه هي الطريقة الوحيدة التي بها تبنى المعرفة.

هذه المحاولة حاولت ان تعطي الباحثين والعلماء في مجال معين يداً عليا على المنظرين الكليين أو المنظرين من خارج المجال.

الاسلام وموضوعات المعرفة ومصادرها

اذا كنا نحن كمسلمين نؤمن بالله سبحانه وتعالى فكيف نتعامل مع هـذا الواقع؟ وهل هناك نظرية معرفة اسلامية تكون هي الاطار لهـذه العلـوم؟ وكيف نأخذ هذه العلوم في شتى المجالات في اطار نظرية معرفة اسلامية؟

ذكرنا في بداية الحديث في نظرية المعرفة احد الاسئلة الرئيسية : ما هـي موضوعات المعرفة؟ اذا كان هناك شخص مسيحي أو شـخص علمـاني أو شـخص ملحـد توافقـه في ان كـل مـا نشـاهده وندركـه بحواسـنا هـي موضوعات معرفة. ولا شيء سوى ذلك : فهل استطيع انا ان اقبل هذا؟ لا استطيع.

لانه اذا كان اصل المعرفة هو صورة من صور الادراك، وجـاء شـخص وحاول ان يحطم هذه الصور بالادراك الحسي أو المعطيات العقليـة. انـا لا استطيع ان اقبل من منطلق ان هناك مدركات غيبية اي موضوعات معرفـة بالغيب. انا بحكم ما اؤمن به من كتاب ومن سنة لابد ان اعلم انها الحقيقة واسلم بها.

اذن في تحديد موضوعات المعرفة سوف اختلف معه. وفي النظرية الـتي تريد ان تحصر موضوعات المعرفـة في الاشـياء الـتي تـدرك حسـياً أو في المعطيات العقلية فقط.

اذاً القضية الثانية التي تقول: ان اي قضية (قضية تعني جملة خبريـة) تتحدث عن شيء لا يمكن تجربته فهي ليست قضية علمية. هل استطيع انا ان اقبل هذه النظرية؟ لا استطيع. لانه حسب هذا الفهم يسمون أي قضيـة

لا تكون قابلة للتجريب (*Meaningless*) لا معنى لها أو لا محتوى لها. فهل القضية التي تتكلم عن الغيب أو عن الجنة والنار أو عن الملائكة هل تعتبر بالنسبة لي بلا معنى في النسق الخاص بي؟ لا استطيع.

اذا كان المصدر الوحيد هو المشاهدة بالتجربة ثم المعطيات العقلية وانا عندي كتاب فيه الخبر عن السماء والارض وعن الجبال وعن الملائكة وعن الجنة وعن النار وعن الآخرة، فهل استطيع ان الغي هذا المصدر واقول انني مازلت في اطار الاسلام؟ لا استطيع.

اذن، لا اوفق في مجال تحديد موضوعات المعرفة، ولا في مجال تحديد مصادر المعرفة. ولا في مجال تحديد منهج التحدث عن موضوعات المعرفة أو لغة المعرفة، انا لا يمكن ان اتفق مع النظرية المعرفية السائدة الآن.

ولا بد لي من ان انطلق انطلاقة تحفظ لي الاساسيات التي اؤمن بها وفي نفس الوقت تعطيني ما اريده من نظرية المعرفة. ماذا اريد منها؟

انا اريد ان أكون في مكان لتحصيل المعلومات بصورة صحيحة، وتصنيفها بصورة صحيحة، والتثبت منها بصورة صحيحة، والبناء عليها بصورة صحيحة، والتنبؤ على اساس منها بصورة صحيحة. وهذا كله ما احمله الى العالم، وهذا كل ما تطلبه نظرية المعرفة: ان تكون قادرة على انتقاء المعلومة الصحيحة، وتعرف انها صحيحة أو باطلة.

لذلك معيار، ولديك طريقة للتعبير عنها بصورة فنية، ولديك طرق لتجميع هذه المعلومات، ولديك طريقة للبقاء عليها بشكل كامل والاعتماد عليها في التنبؤ المعرفي.

اذن نحن نحاول جاهدين ان نقول ان هذا الذي حدث في الغرب، يجب

ان لا يعمينا عمّا ما نسعى اليه، ونتأكد اكثر باننا فعلا قادرون على الوصول الى هذا. نظرية المعرفة الاسلامية تنطلق من ان المصادر المعرفية المتداولة مقبولة، ولكنها ناقصة. وتمامها بأن يعتبر الوحي مصدراً من المصادر.

الاسلام واضافة المصدر المبعد

نظرية المعرفة الاسلامية تنطلق من ان معظم هذا الذي يقال من الاهتمام بالتجربة أو الادوات العقلية المنطقية والرياضية مقبول في مجمله، ولكنه لا يكفي تماماً، وكفايته في ان نضيف اليه مصدراً آخر هو الوحي.

لكن هنا تبرز نقطة مهمة جداً،ان ينضم الوحي كمصدر من مصادر المعرفة ليس بالضرورة ان تبقى كل تلك الاشياء كما هي.

وهذه نقطة مهمة جداً ودقيقة جداً. فعندما يكون لدي ثلاثة مصادر تكون معطيات هذه المصادر بكيفية معينة، فاذا ضممت اليها مصدراً جديداً فربما اثر على المصادر الباقية، لا يلغيها ولكن يشكلها من جديد.

بمعنى ان التجربة وحدها قد تكون مختلفة عندما يضاف اليها الوحي، لماذا؟ لان الوحي عندما نفهمه تستبين رؤية قد تعدل من الرؤية التي كنا نراها من قبل.

القصد من النظريات الكلية ان توضح نظرة أو رؤية متكاملة، والتكامل من مصادر مختلفة تشكل الرؤية بصورة سليمة.

ترتيب مصادر المعرفة

هناك قضية ايضاً لابد ان ننبه اليها: هل هناك مصدر اسبق من الآخر؟

هل هناك مصدر اهم من المصدر الآخر أم أنها كلها على قدم المساواة؟

بالنسبة للمعرفة التجريبية بالتأكيد مصدر الادراك الحسي هو الاساس وهو المجمل، فاذا كان التفكير العقلي ايضاً مصدراً معترفاً به فاني اقول : اذا كان هناك تنبؤ عن شيء وابانت التجربة خطأه فالتجربة هي الحكم والادراك المباشر في الحكم.

اذن هناك ترتيب في اطار التكامل بين مصادر المعرفة، واقول هذا الكلام لاننا عندما نأتي للحديث فيما بعد عن التكامل بين الوحي والادراك الحسي والمعطيات العقلية، سوف نتطرق لهذه القضية.

نحن نريد ان نقول انه بالنسبة لنظرية المعرفة غير الاسلامية كانت التجربة هي الاساس، وعندما ينضم الوحي ايضاً مصدراً من مصادر المعرفة، هل سنقول الكتاب والسنة هما اولا والتجربة ثانياً، ام سنقول انهما في نفس المستوى؟

كيف نجيب عن مثل هذه الاسئلة؟ الاجابة تنطلق من قضيتنا التي تحدثنا عنها الآن، نحن نريد ان تكون هناك نظرية معرفة اسلامية في جميع العلوم.

(واسلامية) معناها مرتبطة بالدين، معناها انه لابد من ان نتأكد ان اجاباتنا على مثل هذا السؤال تنطلق من الدين، اجاباتنا على هذه الاسئلة ذاتها لابد ان تنطلق من الدين يعني لا يمكن ان اضع القرآن والسنة، والتجربة لارى اي نظرية هي الاسبق. الانطلاق من القرآن والسنة يعني انه لابد من تحديد المفاهيم المعرفية والعلمية من القرآن والسنة اولاً، ليس هذا رفضاً للتجربة ولا العقل، لكن لابد ان نبتدئ بتحديد اشياء اساسية، ومفاهيم رئيسية مفتاحية في هذه القضية.

محاولة بناء نظرية اسلامية المعرفة

نحن نحاول ان نجد رؤيتنا الخاصة، فلابد من ان ننطلق من مفاهيم حقيقية مأخودة من اهم ما في نسقنا. مفاهيمنا المفتاحية لابد ان نأخذها من قلب هذا النسق الفكري المعرفي، هذه المفاهيم المفتاحية عن نظرية المعرفة موجودة وبصورة واضحة في القرآن.

لكي نجيب عن الاسئلة المتعلقة بكيف نستخرج نظرية المعرفة الاسلامية؟ أو هل هناك تفاوت في نظرية المعرفة الاسلامية؟ أو هل نستطيع ان نبدأ من هنا أو هناك؟ ان هناك مفاهيم مفتاحية لابد من استيعابها، المفاهيم الخاصة بما تبحث عنه، عن اشياء المعرفة، عن طرق تأصيل المعرفة، عن طريقة تثبيت المعرفة، عن بناء المعرفة...

هذه القضايا فيها مفاهيم مفتاحية لابد ان نعرفها، ومنها نستطيع ان ننطلق لتحديد موضوعات المعرفة، لتحديد منهج تحصيل المعرفة، لتحديد طريقة تثبيت المعرفة، أو الوصول للمعرفة، على طريقة البناء المعرفي.

واذا ما حذفنا هذه المفاهيم المفتاحية فلا اعتقد اننا سنتقدم كثيراً. وهذه المفاهيم متداولة في النظرية الغربية، فمن السهل ان ننزلق فيما بعد في الاطروحات المغايرة المناهضة أو المخالفة، أو على الاقل تلك التي لا تنطلق من مصادرنا.

اذن علينا ان نأخذ هذه المفاهيم المفتاحية ونعرف معناها.

بناء المفاهيم في النسق الاسلامي

واذا ذهبنا الى الخطوة الثانية للحديث باللغة الفنية في مجال نظرية المعرفة لابد ان نستعملها بالمعنى الذي توصلنا اليه، اي الحديث بالفاظ القضايا والجمل من غير انتباه لمعناها الحقيقي كما هو في نظرية المعرفة، عندنا يؤدي الى تراكمات ترينا مفاهيم غير اسلامية. اذن انا ابدأ بهذه المفاهيم ومنها كذا وكذا واحاول ان افهم، ولعلني في هذه اللحظة اقول ان هذه المفاهيم بدراستنا لها تفتح لنا الباب الى مفاهيم اخرى مهمة في البناء المعرفي، في بناء النسق الاسلامي. ما حاجتنا الى هذا؟

حاجتنا ان مصدر المعرفة لا يطرح لي فقط مفهوماً وكلمة، ولفظاً، سيعطيني حقيقة معلومة. فانا عندما اقول ان التجربة هي مصدر المعرفة فلانني استقي من المشاهدة والتجربة معلومة عن الكون وعن الانسان وعن المجتمعات الانسانية عن خلافه. فاذا كانت هناك معلومة من المصدر الذي اريد ان ادخله في القرآن أو السنة لا يمكن ان افهمها ما لم اكن اعرف ماذا يعني القرآن باللفظ وبذلك المفهوم بتطبيقي للمفهوم القرآني في الالفاظ القرآنية والجمل القرآنية. فاذا اضعت المعلومة فاما اتيت بمعلومة خطأ أو ادخلتها في المعلومة التجريبية والعقلية وخرجت بشيء مختلف تماماًنهائياً او اتيت بشيء مخالف لما يقوله القرآن.

هذا المصدر الذي اريد ان ادخله على المصادر المعروفة لا يعطي فقط معلومة وانما يشكل ايضاً اطاراً. وهذا الامر ايضاً لا يكاد يكون متاحاً بصورة مناسبة إلا اذا استطعت ان ادخل هذه المفاهيم الحقيقية في هذا

النسق المطروح امامي. فالاطار سيكون متيسراً، والمعلومة ستكون متوفرة. وربما لسوء فهم المفاهيم الاساسية ظننت ان هذا المصدر حقيقة لا يحوي معلومات ولا يصلح ان يكون اطاراً. وربما لسوء الفهم وصلت الى النتيجة التي وصل اليها العلماء مع الكنيسة وهي ان نبعد هذا المصدر.

فاذا كانت نظرية المعرفة الاسلامية تريد ان تدخل المصدر الحقيقي وهو «الوحي» في المصادر المعرفية المعروفة، لابد من التأكد من ان المفاهيم رسخت ووضحت بحيث نستقي المعلومة التي فيها، ونجد الاطار الصحيح. عن المصدر.

ماذا عن المنهج؟

نحن قلنا في بداية الكلام ان هناك موضوعات المعرفة، ومصدر المعرفة، ومنهج تحصيل المعرفة، ماذا يحدث لمنهج تحصيل المعرفة؟ ماذا احدثنا اذا ضممنا مصدراً آخر لهذه المصادر؟ واعتمدنا الخبر كواحد من الطرق لتحصيل المعلومة، اعتمدنا الخبر كواحدة من وسائل تحصيل المعلومة؟

اذن انا احتاج كثيراً لان اعرف الكثير عن الكيفية والطرق لان يكون الخبر ناقلاً للمعلومة الصحيحة كيف يكون صادقاً اوباطلاً؟ وهل هذا مرتبط بمن يخبر؟ وهل هذا مرتبط بزمان أو مكان؟ دخلنا في قضايا اللغة التي دخل فيها من قبلنا. اللغة ومعاني اللغة ومعاني الكلمات ودورها في المعرفة. هم دخلوا في نظرية المعاني ونحن ندخل لها ايضاً ولكن من منطلق مختلف جداً.

الخبر هو القرآن (كتاب مقروء)، والسنة الحديث (كلام مكتوب). اذاً لابد ايضاً من التعامل مع الخبر في هذا النسق المعرفي، لكن كيف؟

اذا كانت نظرية المعرفة عندهم تُعنى بكل هــذه الاشـياء، ونحــن ايضــاً نُعنى بها لكن من منطلقات مختلفة، الا يكون اتفاق بيننا وبينهم؟ ألا نتفق؟

الخلاف الاكبر يـأتي هاهنــا لان معرفتنــا مؤديــة الى الايمــان بــالغيب، والمعرفة عندهم ارادت ان تحذف الغيب اذن ستنشــأ قضايــا كبــيرة هنــا. كيف نبني معرفة الغيب على هذه المعرفة ذات المصادر الــتي نأخذهــا مــن القرآن؟ كيف نبني الغائب على الشاهد؟

في العلوم الطبيعية، عندمــا عجــزوا في الحديـث عـن القــانون الطبيعــي وكيفية تثبيته حاولوا ان يخرجوا منه بأن يقولــوا هــي النظريــات العلميــة المستقاة من الطبيعة هي مجموعــة قوانــين متشــابكة ومتداخلــة ويفســر بعضها بعضاً. ولكنهم كثيراً مــا حــاولوا ان يفــهموا القــانون الطبيعــي أو النظرية الطبيعية. على اساس انها تكلمت فعلا عن هذه المباحث فقــط. وان الاشياء النظرية التي تأتي في اي نظرية علمية ما هي إلاّ محاولة للحديــث، بصورة مختصرة عن اشياء مادية كثيرة موجودة يدركونها. فاذن نظريــة المعرفة الاسلامية تحاول ان تنطلق من هذه المصادر ذات البعد الــذي فيــه الوحي بهذه الطرق لغرض مهم جداً وهو ان تتحدث عن الغيب.

محاولة استخلاص الرؤية الاسلامية

كيف يكون الايمان صحيحــاً؟ لان ادراك الغيــب أو معرفــة الغيــب هــو الايمان، كيف يكون الايمان صحيحاً، وكيف نبنيه على معرفة؟

اننا في حاجة الى ان نستبدلها بنظرية معرفة اسلامية، وهــذا هــو الــذي دعانا جميعاً للتحدث عن اسلامية المعرفة. وهــذه المحــاولات كلــها هــي ان نعدل في مصادر المعرفة. ونستخلص الرؤية الاسلامية للكون، وان نعدل في

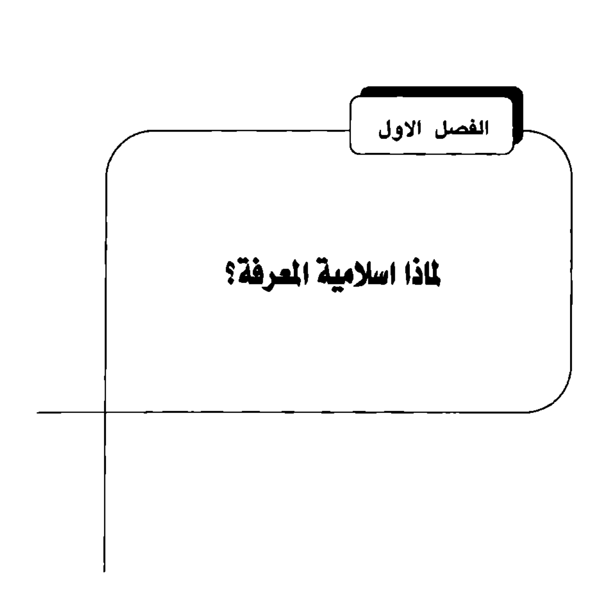
طريقة مرامي المعرفة، وان نجعل كل هذا مرتبطا بعقائدنا الاساسية.

من المعلوم ان مكتبة كاملة لكل واحدة من القضايا التي ذكرناها، اننا في النهاية نريد عندما نراجع ونقرأ كتبنا سواء كانت (*Refrence book* او *Text book*) نكون واعين بأن الشخص الذي كتب الكتاب قد خرج عن نموذجنا أو نمطنا، أو دخل فيها. أو توافق معه أو تعارض فيه، وانا نفسي اصلحه في كذا، وان البديل الاسلامي هو كذا.

وهذه القضية ليست قضية فقط «للمزاح». هي قضية كما وضحت ترتبط بماذا نبنى هذه المعرفة؟ بالايمان، وما يرتبط بالعقيدة والايمان. اعتقد انه ليس امراً هيناً. ولذلك كان كلامي هذا في بعض جوانبه غير واضح.

وهذه المسيرة رغم انها بدأت من قبل ثلاث عشرة سنة، لكنها ما زالت تحتاج لمزيد من الجهد، وكل هذه محاولات نحاول بها ان نصل لهذه الاهداف، نحاول ان نقدم البديل المعرفي للقضايا التي تطرح في مجال ما يسمى بنظرية المعرفة والتي بقينا ساكتين عنها لقرنين أو ثلاثة.

د. ابراهيم احمد عمر



الفصل الاول

لماذا اسلامية المعرفة؟

اسلامية المعرفة وعلاقتها بالعلوم المختلفة

هل نستطيع التفاهم والتعرف على انه كم نوع من العلوم موجود متداول؟

لدينا العلوم الطبيعية، العلوم الاجتماعية، العلوم الانسانية أو الانسانية الاجتماعية (يمكن ادماجهما)، لدينا العلوم النقلية أو الشرعية. اذا كانت انواع العلوم ثلاثة فكيف نتصور العلاقة بين ما نسميه (اسلامية المعرفة) وكل من هذه الانواع؟ هل هي علاقة واحدة ام علاقات مختلفة؟ ان كانت واحدة فنريد ان نعرف كيف؟ وان كانت مختلفة فنريد ان نعرف كيف ايضاً.

انا ازعم ان اسلامية المعرفة علاقتها بالعلوم الشرعية أو النقلية هي علاقة وطيدة واساسية، كما سنحاول الكشف عنها فيما يأتي. وهذه العلاقة ينبغي ان نفهمها بأن العلوم الشرعية ستأخذ صلاحيات اضافية لكي تهيمن على غيرها وتصبح كل علومنا فتاوى (هذا حلال وهذا حرام).

هناك شيء غير الفتاوى في الدنيا، وهناك شيء غير الفقه، واذا كان هناك شيء اسمه فقه، فهناك شيء اسمه فكر، وشيء اسمه علم، وشيء اسمه معرفة، وشيء اسمه عقل، وفيها علاقات متشابكة مطلوب تحديدها.

العلاقة بين الوحي والتدين

الوحي هو السبيل الذي يستخدمه الخالق جل شأنه لايصال معلومة ما الى من يصطفيه من رسله سواء كان من الناس أو من الملائكة.لتبليغه شيئا

معينا، اما ان يامره بتبليغه للآخرين فيكون حامل رسالة، واما ان لايامره بتبليغه للآخرين فيكون نبيا فقط، وهذا معروف.

والدين الذي كنا نتحدث عنه هو التدين وليس الدين ذاته لكن التدين، يعني حينما ابدأ انا كانسان نسبي التعامل مع الدين احوله الى عملية تدين. يصبح شيئاً آخر. تديني انا شيء والدين شيء آخر[1]. فقد اسيء التدين وقد احسنه. وقد أسيء صلاتي وقد احسنها، وقد أسيء صيامي وقد احسنه. وهذا فرق بين الدين والتدين في هذا الجانب. فنحن نريد ان نكشف شبكة العلاقات بين هذا وذاك.

اسلامية المعرفة والعلوم النقلية

ازعم ان اسلامية المعرفة تأتي الى هذه العلوم النقلية، وهذه العلوم النقلية ـ كما نعرفها ـ أو الشرعية كما يسميها اصحابها حوالى احد عشر علماً، استقرت فيما يقرب من احد عشر علماً. نصفها يسمى بعلوم الوسائل، ونصف آخر يسمى بعلوم المقاصد. وعلوم الوسائل: اللغة العربية ومن تابعها، وعلوم المقاصد: التفسير والحديث والاصول والفقه

---

(١) الفرق بين الدين والتدين: الدين بما هو هدى الهي يتصف بالمثالية والكمال فهو تعاليم يتمثل فيها الحق المطلق بناءً على الكمال الالهي في العلم الشامل باحوال الوجود والمحيط بمصلحة الانسان في مختلف متقلبات حياته وهو مطلق عن المقيدات الزمانية والمكانية، وكلي في ذاته ينزع منزع التعقيد العام ولا يقصد الى الضبط في جزئيات الافعال الانسانية. اما التدين فهو كسب انساني في تكييف الحياة بتعاليم الدين ويتصف بالمحدودية والنسبية. (انظر فقه التدين فهما وتنزيلاً الجزء الاول ص ٢٨ ـ ٣١).

كما لا يخفى.

علاقة اسلامية المعرفة بالعلوم النقلية

نرد العلوم النقلية الى اصولها (الكتاب والسنة)، فحينما نأتي الى اي شيء منقول، ان كنت راوياً فالصحة، وان كنت مدعياً فالدليل.ان كنت تروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اثبت لي صحة ما رويت (رواه البخارى ومسلم وفلان وفلان بسند صحيح. ننقد المتن[1] فيثبت لنا صحته، فنقول هذا حديث صحيح). ان كنت مدعياً دعوى فالدليل فالدعوى اين تأتي؟ تأتي في الجوانب العقلية من هذه الانواع من المعرفة، لان اصول الفقه كما لا يخفى على طلبة هذا النوع من المعرفة نوعان:

١ ـ نوع يتعلق بالدليل النقلي فيما يسمونه بالمباحث المشتركة بين الكتاب والسنة.

٢ ـ نوع يتعلق بالدليل العقلي الذي هو تعامل الانسان مع النص، كالقياس[2]، والاستحسان[3]، والاستصحاب[1]، والمصلحة، ورفع الحرج،

---

(١) السند هو سلسلة الرجال الذين رووا الحديث فلان عن فلان... اما المتن فهو اصل الحديث الذي ينسب الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) القياس: كان تقيس على الخمر وهي اصل محرم فرعاً آخر كالنبيذ وغيرها حيث انهما يشتركان في علة واحدة هي الاسكار فتجعل لهما حكماً واحداً هو التحريم. قال الغزالي: هو حمل معلوم على معلوم في اثبات حكم لهما أو نفيه عنهما لامر جامع بينهما من اثبات حكم او صفة او نفيه عنهما.

(٣) الاستحسان: كثيراً ما يرد في كلام فقهاء الحنفية ويجعلونه في غالب الاحيان في

والاخذ بالاخف، والأخذ بالأقل وغيرها.

كل هذا النوع من الادلة هي عبارة عن ادلة عقلية نحاول ان نولد منها دليلا نقلياً أو دليلاً شرعيا ندخله في فقهنا فيوضع الى جوار الدليل المأخوذ أو الفقه المستنبط من النص سواء بسواء.

اعادة النظر في التعامل مع الكتاب والسنة

ماذا افعل باسلامية المعرفة؟ اريد اعادة النظر في التعامل مع الكتاب والسنة وجعلهما المصادر الاساسية. باعتبار الكتاب الكريم المصدر المنشئ لهذه الاحكام. وباعتبار السنة المصدر المبين على سبيل الالزام لهذه الاحكام. ثم اقوم بمراجعة هذا التراث، فأي شيء يتعارض مع هذا ارفضه. آتي الى علوم الوسائل اجد ان علوم القرآن وعلوم السنة التي اسسها اسلافنا كانت عبارة عن استجابتهم لجدلية النص والواقع. وهذه علوم لخدمة النص كي تربط بينه وبين الواقع. هذه العلوم اقوم بمراجعتها واحتاج الى اضافة. واحتاج الى تعديل. ماذا يعني اذاً هذا الذي نسميه اسلامية المعرفة، يسخر البعض ويقولون ماذا تريدون ان تؤسلموا؟ أتؤسلمون الحديث؟ اتؤسلمون التفسير؟ اتؤسلمون السنة؟ نعم، نؤسلم كل هذا. ولكن بأي معنى؟

بالمعنى الذي اشرت. ان العلوم التي تدور حول النص أو ما يسمى بالعلوم النقلية أو العلوم الشرعية الموروثة هي كما اشرت قسمان: علوم

مقابلة القياس فيقولون القياس يقتضي الحظر والاستحسان يقتضي الاباحة.

(١) الاستصحاب: في اصطلاح الاصوليين هو ابقاء ما كان او الحكم ببقاء ما كان.

وسائل وعلوم مقاصد. تتم عملية الاسلمة من خلال مراجعة هذه الانواع من المعرفة ومحاولة الكشف عن مدى ارتباطها بالكتاب والسنة على مستوى فهمنا المعاصر. وعلى مستوى ضرورات تعاملنا مع الكتاب والسنة كمصدر منشئ ـ كما قلت ـ بالنسبة للكتاب ومصدر مبين بالنسبة للسنة النبوية المطهرة.

علاقة اسلامية المعرفة بالعلوم الاجتماعية والانسانية

الجانب الآخر هو العلوم الاجتماعية، فما هو موضوعها الاساسي؟ المجتمع. المجتمع نظماً. المجتمع علاقات. المجتمع بشراً. المجتمع حياة وسلوكاً وقوانين. ..الخ. والعلوم الانسانية تتعامل مع الانسان،نفسه، نوازعه، ميوله، سلوكه، وكيف يستقيم، كيف يعوج.

ازعم ان المرجع الاساسي للقرآن الكريم هو الانسان فرداً، الانسان مجتمعاً. فلا يستطيع انسان ان يقول لا علاقة بين قضية الاسلمة أو بين الانسان وبين المعارف. فهذه المعارف الاجتماعية والانسانية هي معارف القرآن الكريم نتناول فيها مؤشرات في غاية الاهمية وفي غاية الخطورة يمكن الكشف عنها بسهولة فائقة، ان القرآن الكريم تكلم عن الفرد، تكلم عن المجتمع، تكلم عن الاسرة، تكلم عن الانسان، تكلم عن الامم كيف تنشأ، الامم كيف تتقدم، الامم كيف تتراجع. العمران كيف يبنى **﴿هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها﴾**[1]، فاذن العلاقة وثيقة بين قضية الاسلمة وبين العلوم الاجتماعية والانسانية، وبشكل لا ينكر.

---

(١) سورة هود، الآية ٦١.

اسلامية المعرفة والعلوم الطبيعية

بقيت عندنا العلوم الطبيعية ماذا افعل عندما اريد ان أوسلم الكيمياء أو الفيزياء او الرياضيات أو الاحصاء؟ وهل الاسلمة تدخل في هذا الموضوع؟ نعم، ان طبيعة البعد الخطير هو ان العلم الغربي، خاصة التجريبي، نشأ في ظل افكار اساسية اهمها ان الانسان اعلن موت الاله كما فعل «نيتشه»[1]. واعلن مركزية الانسان وسيطرته على كل شيء. وبدا يتعامل مع الطبيعة وكأنه مالكها وقاهرها، الجبار عليها، ونسي قضية الاستخلاف ونسي الامانة ﴿انا عرضنا الامانة﴾[2]. ونسي العهد ﴿واذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾[3]، واستمر بهذا الشكل. ثم بنى هذه العلوم على هذا.

انظروا مطلع الآيات الاولى التي انزلت من القرآن ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ والخمس آيات الاولى بعدها، والسادسة ﴿كلا ان الانسان ليطغى، ان راه استغنى﴾، فحضارة الاستغناء. فكر الاستغناء عن الاله، مركزية الانسان، الانسان هو اله نفسه، الانسان هو اله الطبيعة، الانسان هو اله الوجود، كانت هذه نتيجة وضعية العلوم التجريبية في نهايتها، فما الذي اعطتنا؟

كما يقول جارودي[4]: الآن كم جائع في شوارع الصومال أو شوارع

---

(١) فردريك نيتشه فيلسوف الماني بشر بالانسان الاعلى أو السوبرمان ولد عام ١٨٤٤م وتوفي عام ١٩٠٠م.

(٢) سورة الاحزاب، الآية ٧٢.

(٣) سورة الاعراف، الآية ١٧٢.

(٤) روجيه جارودي، مفكر فرنسي مشهور، اسلم وتسمى بـ (رجاء جارودي)

مالي أو شوارع بنغلاديش يموت من الجوع من المئات التي تموت مطلع كل شمس ومغربها في العالم، كل واحد من هؤلاء لا يملك رغيف خبز، ولكنه يملك في الرصيد الاوروبي والغربي اربعة اطنان ونصف من المتفجرات، لان هذه الحضارة الطاغية توجهنا لتحطيم الطبيعة، الآن يقولون لنا «طبقة الاوزون»[1] خرقت، البيئة دمرت، الاسماك اعتدي عليها وتموت في المحيطات، وغير ذلك، فاصبح هذا الانسان في اطار هذه العلوم طاغية مستبداً في الكون كله، مع انه هو مؤتمن عليه.

هؤلاء يقتلون ملايين من البشر. يجوعون ملايين. يبيدون ملايين، الانسان سلعة في ظل هذه الحضارة، قيمته بما ينتج ولا قيمة له فوق هذا.

لذلك الآن الجدل الذي يدور في الاوساط الطبية الغربية حول ان المصاب بالسرطان أو بأي مرض لا يرجى برؤه ايهما احسن واريح له ولعياله، نقتله بمجرد كشف المرض، وننهي حياته، ام نحاول ان نصبر عليه؟ هناك جدل كثير في هذه.. لماذا؟ لان فلسفة العلوم الاجتماعية والرؤية المادية للانسان والنظر اليه مع هذا الطغيان والتمكن من العلم التجريبي ادى الى طغيانه.. الى نسيانه لنفسه. فأذا انا آتي الى هذه العلوم التجريبية اريد ان

---

*وهو من المشتغلين بقضايا الفكر الاسلامي.

(١) يتكون الغلاف الجوي من عدة طبقات هي: التروبوسفير والاستراتوسفير والميسوسفير والتيرموسفير وادنى هذه المناطق هي التروبوسفير وتمتد من سطح البحر حتى ارتفاع ثمانية اميال وتوجد في هذه المنطقة طبقة (الاوزون) التي تمتص الطاقة الشمسية والاشعاعات فوق البنفسجية التي تضر بالانسان وتشكل خطراً كبيراً ولقد لاحظ بها العلماء خرقا في الآونة الاخيرة.

اعطيها الوجهة... واسلافنا كانوا يقسمون العلـوم الى ممـدوح ومذمـوم... وفي عصورهم نشأ حوالي مائة علم.

ربط العلوم بغاياتها في الرؤية الاسلامية

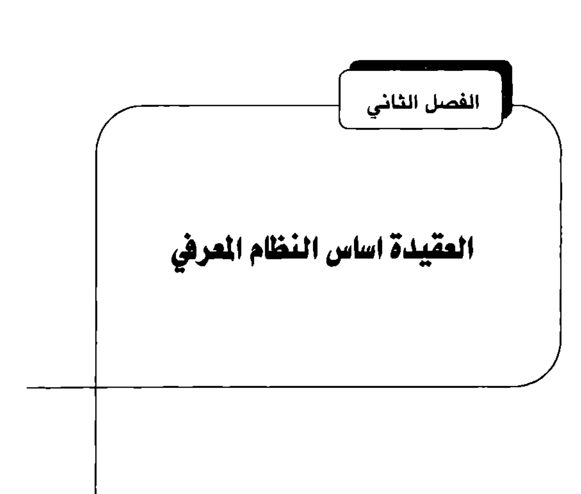
الفخر الرازي كانت عنده موسوعة اشتملت على ذكر مائة علـم في ذلـك العصر. في هذه المائة علم يبين ما هو ممدوح وما هو مذموم.. يذكـر مثـلا السحر بين العلوم المذمومة، وله فيه كتاب سماه (السر المكتـوم في معرفـة السحر والنجوم).

الآن لم يعد الانسان يفرق بين علم مذموم وعلم ممدوح، فحينما يسألك عالم التجريب، ما علاقة اسلامية المعرفة بعلمي؟ انـا رجـل ادخـل المختـبر واتعامل مع مادة، فما دخل الاسلام في هذا؟ اقول لـه ان الاسـلام يعطيـك الوجهة... ويعطيك الاتجاه... ويجعل لعلمك غاية... ويجعل لعلمك مقصدا... ويفرض عليك البحث عن النافع والضار، الممدوح والمذموم...

إذاً مستويات العلوم المختلفة هي في حاجة الى هذا الذي نسـميه اسـلام المعرفة أو سمه ما شئت. الارتباط بين المعرفة والقيم... أو سمـه ان شـئت الربط بين غاية المعرفة ومقاصدها. والخروج من (فكرة الفن للفن[1] والعلم للعلم) وغيره من الشعارات المطروحة.

---

(١) مقولة (الفن للفن) هي مقولة ادبية تسعى الى ان لا تجعل للادب أو الفن غايـة غير الجمال ولا يعالج بذلك مشكلة من المشاكل بالضرورة ولا يخدم ايدلوجيـة معينـة وقد ظهرت هذه النزعة في المدرسة التي عرفت (بالبرناسية) ومن انصـار هـذا الاتجـاه (كانت) و(لو كونت دي ليل) وغيرهم وقـد جـاء هـذا التيـار كـرد فعـل لتيـار الادب الواقعي في الفكر الاشتراكي الذي يحاول توجيه الادب ويجعله خادما لافكاره.



الفصل الثاني

العقيدة اساس النظام المعرفي

وظيفة الايمان بالغيب

اذا تحدثنا عن الغيب فان ما لا نعرفه الآن قد نكتشفه ونعرفه بعد اسبوع،بعد شهر، أو بعد سنة، وقد تكتشفه اجيال بعدنا. فهذا يمكن تسميته غيباً[1]، لمجرد تقريبه الى الاذهان، اما الغيب المطلق فهو ما اختص الله تعالى وحده بمعرفته. فالروح مثلا ما هي؟ وكيف يتم الخلق؟ وما شأن الله تعالى الآن؟.

قال تعالى: ﴿يسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا﴾[2]، هذا غيب. وقال ايضاً: ﴿لخلق السماوات والارض اكبر من خلق الناس﴾[3] وهذا ايضاً غيب. وقال: ﴿كل يوم هو في شأن﴾[4] هو غيب ايضاً.

فالله سبحانه حين امرنا بالايمان به لم يأمرنا بالايمان مع الغفلة

---

(١) الغيب هو ما غاب عن الحواس وكل شيء مستور فهو غيب . هذا من ناحية عامة، اما الغيب المطلق فهو ما لا يدرك حساً قال الراغب الاصفهاني: الغيب: ما لا يقع تحت الحواس (انظر: مفردات القرآن الكريم للراغب ص ٣، وصفوة التفاسير ج ١ ص ٢١).

(٢) سورة الاسراء، الآية ٨٥.

(٣) سورة غافر، الآية ٥٧.

(٤) سورة الرحمان، الآية ٢٩.

الكاملة عنه، وانما امرنا بالايمان به لاداء وظيفة ما في حياتنا، فايماننا به يؤدي دوراً ما، يؤدي وظيفة ما في حياتنا.

علينا ان نبحث عنها سواء كانت غيباً مطلقاً أو كان غيباً باتجاهنا. وكيف ننظم جانب تعاملنا معه؟

تحديد العلاقة بين الغيب والكون والانسان وتنظيمها

هذه القضايا الثلاث: الغيب.. الكون.. الانسان.. قضايا اساسية مطلوب تحديد العلاقة بينها بمنتهى الدقة وبمنتهى الوضوح في الوقت ذاته والا فالانسان سوف يكون مشلولا أو نصف مشلول عن اداء دوره اذا لم يفهم هذا حق الفهم ولم يدرك طبيعة العلاقة بين هذه الاطراف الثلاثة او تنظيم العلاقة بينها لو اختلت العلاقة بين الغيب والانسان لا يستقيم امر دين ولا امر دنيا. لو اختلت العلاقة بين الغيب والطبيعة والانسان يحدث الخراب نفسه. فلابد من شيء ثان.

فحينما نؤمر بأن نؤمن بالله والملائكة والكتاب والنبيين واليوم الآخر، ونؤمن بأن الله جل شانه يتصف بكل صفات الكمال، ومنفى عنه كل صفات النقصان، وله الامر وله الحكم وله القدر وله المشيئة وله الارادة.

والنبوة صفاتها كذا وكذا ودورها كذا، وواجب الانبياء كذا وما يستحيل عليهم كذا، الكتب السماوية وصفاتها، القدر، اليوم الآخر.

هذه كلها لتنظيم العلاقة بين الاطراف الثلاثة، يعني ان نؤمن بكل هذا الذي ذكر. فالنتيجة ينبغي ان تكون لتنظيم العلاقة بين هذه الاطراف الثلاثة، اذا لم يحصل معنى ذلك ان هناك خللاً في هذا الذي سميناه بالعقيدة.

تقريب المسألة للاذهان وافادة التصور

ومصطلح العقيدة طارئ نشأ في العصر العباسي وربما بدأ استعماله في العصر العباسي اما قبلا فلم يستعمل المسلمون إلاّ كلمة الايمان، العقيدة تبين لنا الغيب ما هو؟ فهي لم تطلب منا ان نؤمن بمجهول. عرفته لنا، وصورته، ثم امرتنا بالايمان به.

لو قرأنا القرآن تفصيلا لوجدنا ان آيات كثيرة تتناول اموراً لا يريدنا ان ندخل في تفاصيلها. فيجب ان نفهمها بقدر معين يكفي لافادة التصور، ولكن لسنا مسؤولين عن التفاصيل الدقيقة وراء ذلك.

نجد عالماً آخر، عالم النشوء. الخلق، خلق السموات، خلق الارض، خلق البحار، خلق الانسان...الخ. آيات كثيرة جداً في كتاب الله تتناول قضايا الخلق، قضايا النشوء، كيف جعل الله سبحانه وتعالى هذه الاشياء الموجودة في الكون؟ كيف خلقها؟ لماذا خلقها؟ كل ما يتعلق بها تقريباً يأخذ محوراً اساسياً من محاور القرآن.

وهناك اشياء اخرى، آيات اخرى نقرؤها فنحس ونفهم ان الله سبحانه وتعالى، انما يريد ان يتحدث عن ارادته جل شأنه ومتعلقات هذه الارادة على اختلافها، يريد ان ينبه الى ان هناك دائرة من الدوائر التي ينبغي ان نلتفت اليها. ألا وهي (دائرة الارادة).

فكأنما هناك جانب أو محيط أو دائرة نسميها دائرة الامر، ومحيط آخر (دائرة الخلق أو النشوء) ومحيط آخر وسط بين الاثنين دائرة الارادة التي تأخذ من الامر، وتحول الى النشوء والى عالم الاشياء. كل هذا من اجل ان

نعطي تصوراً دقيقاً للكون، لانفسنا، للحياة، لدورنا فيها، للعلاقات الموجودة.

التطلع الانساني

الانسان بطبيعته لديه اسئلة دقيقة وكثيرة جداً، يولد ومعه هذه الاسئلة، انظر الى طفلك وهو لايزال في الاشهر الستة الاولى. يحاول ان يمسك بأي شيء حوله. يحاول ان يكسر اي شيء حوله، يحاول ان يلتفت يميناً ويساراً، يريد ان يعرف، وكثير من اضطراباته وتكسيره وتخبيطه للاشياء هي عبارة عن منهج الطفل للحصول على المعرفة. لم يستطع ان يعرفه فيكسره، انت تفهمه على انه عمل تخريبي، ولانه طفل لا يفهم ولكن كان يحاول الفهم، وعمليه التكسير هي منهجيته ومستوى عقله أو لنقل ـ نستعير التعابير الاقتصادية ـ في مستوى سقفه المعرفي. ان طريقة المعرفة ان اكسره حتى ارى ما بداخله، أو ما هو؟ اكتشف حقيقته. فهناك سؤال ما هو؟

يريد الجواب عنه (ما هو) سؤال عن الحقيقة، عن الماهية، عن مركبات الشيء. وقد يسال أو يطرح سؤالاً: أي شيء هو؟ وعنده سؤال: كيف حدث هذا؟ وعنده سؤال: لماذا؟ فهناك سلسلة من الاسئلة بعضها وارد وبعضها غير وارد، وبعضها مهم وبعضها لا اهمية له؛ لكنها اسئلة تدور في الذهن الانساني لان الله جل شانه فطر الانسان على ان يكون تطلعه الى المعرفة. مفطور على هذا، وضع فيه هذه الطاقة الكامنة لتوليد اسئلة والبحث عن اجابات عنها.

المصدر الخارجي للمعرفة

ومن حكمته جل شأنه ورأفته ورحمته بهذا المخلوق ميز سبحانه وتعالى بين الاجابات التي يمكن ان يصل اليها بنفسه وجهده والاجابات التي لا يستطيع إلا اذا حصل عون خارجي.

لابد من مصدر خارجي، يعرفه الجواب، فطاقاته لا تستطيع ان تصل به الى جواب دقيق، وسيدنا ابراهيم عليه السلام نموذج على هذا.

عرض ربنا سبحانه وتعالى علينا قصته بطريقة ما، انه: ﴿رأى كوكباً قال هذا ربي فلما افل قال لا احب الافلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما افل قال لأن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما افلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفاً وما انا من المشركين﴾[1]، ﴿وحاجه قومه قال اتحاجوني في الله وقد هداني﴾[2].

هناك اسئلة مهمة يبحث بنفسه عن الجواب عنها. وهي مهيأة، مبثوثة. الجواب موجود، ولكن يحتاج الى بحث. وهذا لابد ان يقوم به هو.

توازن النموذج المعرفي

وتوضيح للعلاقات الاساسية الدقيقة للوجود من حوله، غيب، خلق انسان. اذا آمنت بالله ادركت اني مخلوق وان الكون من حولي ايضاً

---

(١) سورة الانعام، الآية ٧٦ ـ ٧٩.

(٢) سورة الانعام، الآية ٨٠.

مخلوق. النبوة مصدر معرفة لي، تدلني على خـالق، تنبـهني الى كثـير مـن الامور. مرجعية بالنسبة لي. وانا احتاج الى مرجع، الى مصدر.

استقامة الرؤية للعوالم الاخرى

ايماني بالملائكة ايمان بوجود عوالم اخرى، انني لست الوحيد المتصرف في هذا الكون انما انا اعيـش مـع عـوالم اخـرى علـى ان اتواضـع وادرك حجمي في هذا الملكوت الواسع. واعرف طبيعة العلاقة التي ينبغي ان تكون بيني وبين هؤلاء.

والرسول صلى الله عليه وآله وسلم نظم في احاديث كثيرة جداً نفهمـها طبعاً بطريقتنا الفهم الجزئي، ولكن هي كلها تصب في اطار البضع وسبعين شعبة. فعندما يقول: «الشجر يسبح، الحجر يسبح،أحد جبل نحبه ويحبنا» يحاول ان يضع صورة، يرسم لمن حوله تصوراً، يضعه في عقولهم، يضعه في اذهانهم، ليؤدي هذا التصور وظيفة اساسية. فكل عنصـر مـن عنـاصر الايمان أو العقيدة حينما نفكر فيه نحاول ان نقوم بعملية تحليل دقيـق لـه نجد انه يقدم لنا بعداً اساسياً وقاعدة ودعامة اساسية يقوم عليـها جـانب خطير من تصورنا الكلي. ويقدم لنا اجابـات عـن بعـض أو أهـم الاسـئلة النهائية، وجزء اساسي من وظيفة الايمان أو العقيـدة بعـد بقـاء التصـور وتحديد مكوناته ان يقـدم مـا نسـميه بالرؤيـة الكليـة للكـون وللانسـان والحياة. هذه الرؤية الكلية هذا الذي يسميه البعض نموذجاً.

كل هذا عبارة عن الـذي نسـميه الرؤيـة الكليـة الـتي تقدمـها العقيـدة بالنسبة لنا كمسلمين حين تقدم العقيدة لنا هذا تقوم بعملية بناء ما سمـاه «كونت» (بالنموذج الكلي)، أو ما يمكن تسميته (بالرؤية).

هذا النموذج وهذه الرؤية هي عبارة عن العدسة الموجودة تقريباً في هذا الجهاز (الكاميرا) ونحوه. تعكس فيها كل ما تراه ثـم تـأتي بصـورة كل شيء بحسب الوظائف التي حددت للجهاز. فالانسان صاحب عقيدة مـا أو رؤية ما، هذه العقيدة تسمى (نموذجاً).

تقديم التفسيرات

في دائرة هذا النموذج... وفي دائرة هذه الرؤيـة، يبـدأ النمـوذج بتقديـم تفسيرات ويعطيني تفسيرا لما حولي. أسأل احيانا لماذا خلق ربنا الذبابة؟

أحد المؤلفين الف كتاباً قد يكون سماه لماذا خلق الله الفرس والذبابة؟ قد يكون السؤال تافها. أو ما يسميه المغاربة اشكالية الكتاب قد تكون تافهـة، ولكن لا بأس فقد وردت واثيرت. لماذا خلق الله الكلاب؟ لماذا خلـق الله كـذا وكذا؟ احيانا يطرح الانسان بعض التسـاؤلات. النمـوذج في ذهنـه يعطيـه جوابا مباشرا.

ايفترض فيه القدرة على هذا، الذباب له دور في الحياة، هذا الدور قـد لا اعرفه اناً؛ لاني لا اشتغل بعلم الحشرات لكن يعرفه عالم الحشرات.

اختلال النموذج المعرفي

١ ـ اختلال النظرة للعوالم الاخرى:

ماوتستونج[1] سأل مرة كم تأكل العصافير من الحنطة في الصين؟ فذكـروا له ملايين الاطنان. قال هذا معناه اننا نقدر ان نعيـش بـهذه الاطنـان ملايـين

---

(١)ماو تستونج زعيم صيني اشتراكي شهير.

الصينيين.. فلماذا اترك العصافير؟ فامر بقتل العصافير، واعطى الجوائز لكل من يأتيه بعصفور. واستمرت حملة مكافحة العصافير الى ان قضوا عليها. فظهر عندهم شيء ما، نبات له وظيفة ما في جسمه، فغريزيا يذهب العصفور ويقطعه وياكله. هذا النبات كان يفني من الحنطة اضعاف ما كانت تأكله العصافير، فاضطروا ان يربوا عصافير جديدة ويطلقوها في الغابة.

لو ان النموذج الذي في رأس (ماوتستونج) كان مختلفاً ويستطيع ان يقول كما يقول الفلاح البسيط عندما يبذر البذر: للناس ثم للطير، ولي ما قسم الله. هذا بكل بساطة نموذج جعله يدرك ان عليه ان يبذر والله سبحانه وتعالى هو الزارع وهو الذي ينبت ويرزقني منه ويرزق سواى. لكن (ماوتستونج) كان يحمل نموذجاً آخر. نموذجاً ماركسياً. والنموذج الماركسي يؤمن بأن الطبيعة صراع.

وامريكا في ايام (ريجان) اعطت جوائز للفلاحين الذين استجابوا لنداء (ريجان) بعدم زراعة بعض المواد منها الحنطة والقمح الامريكي معروف. كان يصل لكل مكان هدايا ومساعدات، لانه لديها كميات هائلة من القمح تفيض عن الاستهلاك. ويلقى بالمحيط ايضاً عدد كبير جداً من الاطنان! لانهم لا يريدون ان ينخفض السعر. وانخفاض السعر معناه خلل بالنسبة لاقتصادياتهم المبنية على نموذج آخر، بدلا من ان نلقي القمح بالمحيط يجب ان نعطيه لشعوب اخرى.

٢ ـ التحلل الاخلاقي:

وممارسة الجنس صناعة رائجة ومربحة جداً. كاميرا، مومسين، وساقطين، ثلاثة يمارسون الجنس ويصورون ويبيعون، هذا حدث عندما

اختل النموذج. خرجت احدى المومسات في احدى التلفزيونات الامريكية، حاصلة على درجة الماجستير، ولكنها تمارس البغاء وحرفتها الاساسية هي البغاء.

ونوقشت في هذا الموضوع، وتحدثت عن نفسها بكل فخار، فقالت: اشتغلت صيدلانية وكان دخلي محدوداً، ثم اشتغلت في هذه المهنة فازداد دخلي، مع نوع من المتعة وفيها دخل، فلم لا؟ القيمة الاساسية، النموذج، الرؤية الى الكون، النظر الى الانسان جعلها تتصرف بهذا الشكل.

العقيدة والنموذج الكلي

فاذا كان هناك نموذج توجده هذه العقيدة من خلال ما اوضحته، طبيعة الكون والايمان به، الانسان معناه، الغيب معناه، العلاقة بين هذه الامور الثلاثة لكان الامر مختلفاً. هذا النموذج اصبح وسيلة تفسير، واداة تحليلية، واداة نقدية، واداة لتوليد انواع من المعرفة من خلال الكشف عن علاقات مختلفة. فقد تحدث لدى الانسان عملية استحسان لشيء قد لا يعرف تفاصيله لكن يستحسنه. واحياناً يستقبح شيئاً وينفر منه دون ادراك كامل لحقيقته. ولكن يحس هذا الاستحسان او هذا الاستكراه. ما الذي جعله يحس بهذا خاصة الامور غير الحسية؟

نموذج كلي هو هذا النموذج الذي تولد عن عقيدة، تصور كامل بمقوماته وبخصائصه بنى نموذجاً كلياً.

النموذج الغربي

نأتي الى النموذج الموجود الآن، مثلاً في الغرب الذي يجعل امرأة تنظر لجسمها، هناك قضايا الاجهاض.

(هتلر)[1] ماذا فعل ؟ (هتلر) في الحقيقة والنموذج الكامن في رأسه كـان العنصرية. ان الشعوب الاخرى غير الشعب الالماني، شـعوب مـن الدرجة الرابعة في الغرب المنتج هو الانسان الجدير بالحياة والآخرون غير المنتجين ليسوا كذلك،فاذن لا مانع من ان نتخلص منهم. النموذج الغربي يرى فيهم عالة على المجتمع ينبغي التخلص منهم بطريقة أو باخرى وهـذا التخلص يبحث فيه عن افكار مختلفة لأن الفكر الاقتصادي والنمـوذج الاقتصـادي ونموذج المنفعة المباشرة كان هو النموذج الذي يحمل الناس على التسلط.

تعطيل وظائف العقيدة

اذن العقيدة يمكن ان تكون دعامة وقاعدة لنظام معـرفي كـامل يعطينـا نموذجاً كلياً، ويساعدنا على توليد النماذج الفرعية. منهج وشـرعة ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ لكن المسلمين للاسف الشديد غفلوا عن هـذا. هذا النموذج اصبح قاصراً، ضيقاً، محدوداً.

روى لي الشيخ «القرضاوي» انه صلى الجمعة في احـدى مـدن الخليـج واستمع للخطيب وهو يخطب ويقول: الحمـد لله الـذي سـخر لنـا هـؤلاء الامريكان، يستخرجون البترول ويصنّعونه ويبيعونه ويأتوننا بالسـيارات الفارهة والمساكن العالية لنسبح بحمد اللهونتفرغ لعبادته، هـذا لـو كـانت العقيدة ـ عنده ـ واضحة ومكونة رؤيـة، ومؤديـة وظائفـها في نفسـه وفي عقله، وصانعة النموذج الكلي ما حدث هذا. وعليـه ان يعـرف ان تسـبيحه

---

(١) هتلر، زعيم الماني نازي شهير. فضـل هتلـر الشـعب الآري وزعـم ان الدمـاء الآرية هي انقى الدماء وافضلها وكانت هذه هي ايديولوجيته التي بنى عليها ومنطلقـه الاول في النازية.

هذا الكفر اهون منه، لان الكفر أنواع: هناك كفر باللسان، وهناك كفر بطـر نعمة، لقد اعطانا ربنا الارض والماء والهواء. وتظل بعد ذلك عـاطلا تسـبح الله، فانت لم تسبح الله.

بلاد المسلمين الآن ثلاثة: بلاد فيها الناس يموتـون مـن الجـوع (مـالي، الصومال، بنغلاديش) اللاجئون الآن أكـثر مـن ٤٥ مليـون حـوالي ٨٢ ٪ منهم مسلمون. لو ان العقيدة مفهومة بشكلها الصحيح وقائمة بوظائفـها المعرفية ما كان ان يحدث هذا اطلاقاً. ولكن هذه العقيدة خامدة في النفـوس والقلوب.

اختلاف الانظمة المعرفية

اذن نرجع الى ان هناك انظمة معرفية في العالم كله:

نظام وضعي يتجاهل الغيب تماماً، قد ينكرونه وقـد يتجاهلونـه فقـط، وهذا هو النظام المعرفي العلماني أو الوضعي، وهـو جانبـان جـانب ملحـد ينفي الغيب، وجانب لا ينفيه ولكن يقول لا يهمني أن يكون هناك غيب، فانا اتعامل مع واقع واشياء موجودة فقط.

وهناك نظام آخر يقابله: النظام الديني الذي يقوم على الايمـان بـالغيب وعلى ان هذا الكون فيه هذه الاطراف الثلاثة وان هناك علاقـات لابـد ان تكون واضحة في هذا كله، اذا وضح هذا، فما هو نظامنا المعرفي القائم علـى هذه العقيدة؟

العقيدة والنظام المعرفي

انا استعمل النظام المعرفي استعمالاً آخر، النظام المعرفي عندي يقوم علـى

العقيدة التي تعطيني التصـور ومقوماتـه، والنمـوذج الكلـي وتجيـب عـن الاسئلة النهائية.

فاذن النظام المعرفي عندي عبارة عن مظلة تندرج تحتها كل مـا نسـميه بقضايا المعرفة، وانا ازعم ان العقيدة الاسلامية اساس صالح لبناء النظـام كله، النظام المعرفي. كما يمكن ان تعطيني نظرية، وتعطيني رؤية، وتعطيـني نموذجاً كلياً، وتعطيني نموذجاً لتصنيف المعرفة وتعطيني نموذجاً للتاريخ.

النموذج الوضعي

والنموذج الوضعي على سبيل المثـال في هـذه النقطـة يـرى ان المعرفـة قضية كان الإله كبير الآلهة يعتز بها ويمسكها عن الانسان خوفـاً منـه ان ينازعه سلطانه. لانهم مشركون آخذون عن الاغريق.

الاغريق كان عندهم هناك آلهة كبيرة وآلهة صغيرة، احدهم سـرق سـر المعرفة من الإله الاكبر واعطاه للانسان، فغضب عليه الإلـه الاكـبر وعذبـه عذاباً شديداً. هذه الاسطورة موجودة حتى الآن.

من يقرأون في الفكر الغربي بأي مجال من المجـالات المتعلقـة بنظريـات المعرفة يعرفون ان هذا الاثر موجود لايزال حتى الآن.

النموذج الاسلامي

انت نموذجك أو نظامك يقول: ﴿وعلم آدم الاسماء كلها﴾[1]، خلقه وبعـد ان خلقه ونفخ فيه الروح اسجد له ملائكته، وهذا يبرر استخلافه.

علمه الاسماء كلها واتى به وقال للملائكة: ﴿انبؤني باسمـاء هـؤلاء ان

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣١.

كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا انك انت العليم الحكيم قال يا آدم انبئهم بأسمائهم، فلما انبأهم بأسمائهم، قال ألم اقل لكم اني اعلم غيب السماوات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾[1].

المعرفة اباحها لك الله جل شأنه، وهو الذي اسسها لك وهو الذي علمك وهو الذي والى ارسال الرسل. وانزل عليك الوحي واصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس، لذلك كان علماؤنا يتحرجون من اخذ اجر على التعليم ويكتفون بالاوقاف البسيطة، وبعضهم يحترف حرفة، فتجدون الاسكافي، الزجاج، النجار، ابن البناء، يذهب في الصباح يدرس ثم يذهب الى السوق، الخباز، الاسكافي...الخ، لماذا؟ لان النظام المعرفي الذي عاش عليه نظام يرتبط بالعقيدة ويرتبط بالايمان. فهذا الامر لابد ان نكون متنبهين له.

فاذن لدينا نظام معرفي بمجموعته الكاملة بكل تفاصيله قائم على العقيدة.

نتيجة تعطيل العقيدة عن النظام المعرفي

لو اختل النظر الى العقيدة يحدث فينا ما هو حادث الآن، اكثر الناس صفاء في عقيدتهم اكثر الناس اصراراً على تجاوز قضايا المعرفة هذا النظام المعروف الآن منزوي، منكمش، النظام المعرفي الاسلامي، مقهور، منحسر، في بلادنا وبلاد غيرنا.

هيمنة النظام الوضعي

والنظام المعرفي السائد هو النظام المعرفي الوضعي سواء في مجال العلوم

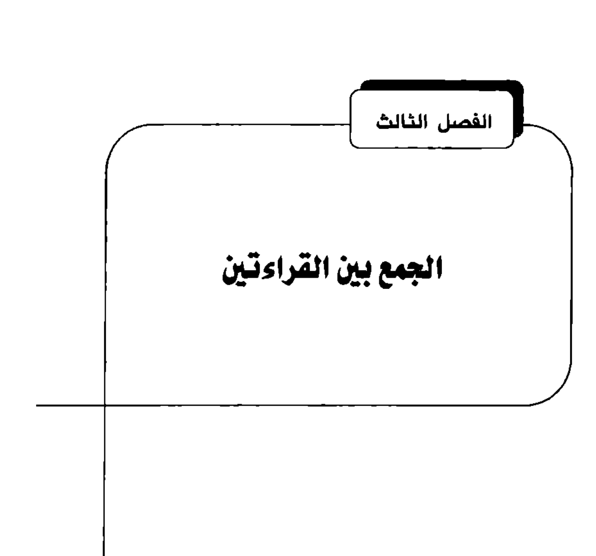
---

(١) سورة البقرة، الآية ٣١ ـ ٣٣.

الطبيعية التي لا يزال الغرب هو المتحكم بفلسفتها، أو العلوم الاجتماعية والانسانية التي لا يزال الغرب ايضاً متحكماً فيها حتى انه بدأ يخترق بعض مجالات العلوم الشرعية. الآن الدراسات المقارنة بين الشريعة والقانون ـ تنبثق من نفس النظرية القائمة على ذلك النظام المعرفي الوضعي.

فعندما تأتي وتقوم بعملية مقارنة بين هذا وذاك وانت في غفلة عن قواعد الانطلاق المعرفي وكيف تتكون المعرفة. والنظم المعرفية والنماذج الكلية والجزئية كيف تكون فبطبيعة الحال تكون معرضاً لعملية الاختراق حتى في هذا المجال الفقهي.

ومعظم الدارسين في الغرب للدراسات الاسلامية الآن يدرسونها في دائرة ذلك النموذج الكلي الغربي، وفي اطار تطبيقاته، وفي اطار رؤيته، شئنا ام ابينا، حتى في الدراسات الدينية نحن في حاجة الى ان ندرك هذا الامر، ونعرف ان هناك عقيدة ولها وظائف معرفية، ووظائفها المعرفية هي التي اشرنا لها باختصار. وان هناك نظاماً معرفياً يقوم باكمله على هذه العقيدة، فان اختلت اختل وان استقامت استقام.



الفصل الثالث

الجمع بين القراءتين

مفهوم الاصطلاح

نعني بالجمع بين القراءتين، الجمع بين قـراءة الوحـي وقـراءة الكـون، والجمع بين القراءتين فكرة تقوم على أن الكون كتـاب الله المخلـوق المـادي المجسم، وان القرآن كتاب الله المنزل، وأن الكتابين في كل منـهما مؤشـرات تهدي الى الآخر، فإذا كان القرآن الكريم قد اشتمل على كثير من المؤشـرات التي تدعونا الى النظر في الكون والتدبر في قضاياه وبذل الجهد في اسـتنباط قوانينه والقواعد الاساسية التي يقوم عليها، فان في الكـون دعـوة مماثلـة للوصول الى القرآن الكريم.

التعادل بين القرآن والكون

كذلك هنا فرضية أخرى تنطلق منها هذه القضيـة (قضيـة الجمـع بـين القراءتين) وهي أن هناك تعادلاً بين القرآن والكون[1]. نعني بهذا التعادل أن

---

(١) في اطار التعادل بين القرآن والكون يقول الله تعالى﴿فلا اقسم بمواقـع النجـوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم﴾حيث يقسم بعظمـة الكـون المـادي، ذلـك الكتاب المنظور على عظمة الكتاب المسطور، والقرآن عند النظر اليه بشمولية نراه يشـبه الكون الكبير، بل نجد ان للقرآن كوناً معنويـاً يضـارع الكـون المـادي الـذي خلقـه الله سبحانه وتعالى (انظر: كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، ص ١٠١).

القرآن يستطيع أن يستوعب الكون وحركته، بمعنى ان في القرآن قواعد هداية قادرة على استيعاب حركة الكون، وأن الله جل شأنه جعل أمره بين كتابين: الكتاب المنزل والكتاب المخلوق.

وجعل للانسان عينين يقرأ كلا الكتابين، وأن سورة العلق و آياتها الخمس الأولى هي أول ما كان من القرآن نزولاً باجماع العلماء خلافاً لجابر بن عبد الله[1]. إذ كان يرى أن اول ما نزل (المدثر)[2] وأول سورة العلق هي: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾[3] يتكرر الأمر بالقراءة

---

(١) جابر بن عبد الله، صحابي مشهور من الانصار روى كثيراً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) أصح الاقوال إن أول ما نزل من القرآن هو قوله تعالى ﴿اقرأ بسم ربك الذي خلق ...﴾ ويدل عليه ما رواه الشيخان وغيرهما، عن عائشة قالت:(أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب اليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فيها الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ويرجع الى خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء... الى آخر الحديث).

وقيل إن اول ما نزل هو قوله تعالى: ﴿يا أيها المدثر﴾ لما رواه الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت جابر بن عبد الله أي القرآن انزل قبل؟ قال: ﴿يا أيها المدثر﴾ واجيب عن حديث جابر بان السؤال كان عن نزول سورة كاملة فبين جابر أن سورة المدثر نزلت بكاملها قبل نزول تمام سورة (اقرأ) فان أول ما نزل منها صدرها ولم تنزل كاملة. (انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ٦٥ ـ ٦٦).

(٣) سورة العلق الآيات ١ ـ ٥.

مرتين، وأجمع العلماء على أن ليس في القرآن تكرار وكل حرف لـه موقعـه ووظيفته وأداؤه.

العناصر المعرفية الثلاثة

كل هذا يشير الى أننا بين ثلاثة عناصر هي:

١ ـ القرآن[١]،

٢ ـ الكون[٢]،

٣ ـ الإنسان[٣].

---

(١) يقصد بالعناصر الثلاثة العناصر التي تدور حولها العلوم وتكون مصادر للمعرفة فالقرآن تدور حوله العلوم الشرعية كالتفسير وأصول الفقه وعلوم القرآن وغيرها، والكون تدور حوله العلوم الطبيعية التطبيقية والإنسان تدور حوله العلوم الإنسانية والاجتماعية، أما القرآن فهو كلام الله أنزله وهو علم قطعي الثبوت وهو مصدر لا مثيل له للكليات والمسلمات العلمية اللازمة لنشأة العلوم بشقيها الطبيعي والانساني ذلك أن أحد أهم مشاكل العلوم الحديثة هو عدم يقينها من المسلمات الكلية التي تقوم عليها وعدم وجود منهجية قادرة على توفير هذا اليقين (المعرفة بين الاسلامية والعلمانية، ص ١١).

(٢) الكون، بكل عناصره مصدر أساسي من مصادر المعرفة الاسلامية والدليل تجده في كثير من آيات القرآن، التي تحث الناس على التأمل والتدبر والتفكير في خلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة ومن آية دالة على عظمة خالقها، وهذا الأمر أوضح من أن يخفى.

(٣) الإنسان: فرداً أو مجتمعاً هو عنصر هام من العناصر التي قامت العلوم عليه، فانفرد بشق كبير من العلم وهو الدراسات الاجتماعية والانسانية بصورة عامة كعلم النفس والاجتماع وغيرها.

الإنسان يقرأ في الكون ليهتدي الى القرآن، ويقـرأ في القـرآن ليـهتدي الى الكون، وأن القرآن يحمل القدرة على هداية الإنسان الى التجديـد. والكـون عندما يرتبط بعناية العالم كما في قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله مـن عبـاده العلماء﴾[1] فان هذا الكون فيه ما يفسر القرآن ويوضحه بشكل لا مثيل له، لهذا جاءت فكرة (الجمع بين القراءتين)...

الجمع بين القراءتين في التراث الاسلامي

نجد الفكرة عند الحارث المحاسبي[2] في كتابه (العقـل وفـهم القـرآن)... فقد وردت فيه اشارات لمعادلة القرآن للكون. وفي الوقت نفسه نجد الفكـرة نفسها عند محيي الدين بن عربي[3] في (فصوص الحكم) إذ نجده يشير الى هذه المعادلة.

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨ والمعنى: أن العلماء هم الذين يخشـون الله ولا يخشـون أحداً سواه ومعنى القصر في الآية قد أفاده تقديم ما حقه التأخير وهو المفعول به (اسم الجلالة).

(٢) الحارث المحاسبي: هو الحارث بـن أسـد المحاسـبي أبـو عبـد الله مـن أكـابر الصوفية كان عالماً بالاصول والمعاملات، وله تصانيف في الزهـد والـرد علـى المعتزلـة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة ومات ببغداد عام ٢٤٣ هـ، وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره من كتبه (أدب النقد وشرح المعرفة) و (المسائل في أعمال القلـوب والجـوارح) ـ (المسائل في الزهد) و (البعث والنشور) و (ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه).

(٣)محيي الدين بن عربـي: أحـد أعـلام التصـوف ويسـمى بفيلسـوف الخاصـة والكبريت الأحمر له من المصنفات (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكيـة) ولـه ديـوان شعر مطبوع وتفسير للقرآن امتـاز بالطريقـة الاشـارية في التفسـير وهـي نـوع مـن التفسير الباطني.

أما الفخر الرازي فقد تميز عن كلا العالمين بأن حاول أن يفسر عملياً في تفسيره الكبير (مفاتح الغيب) ويقول في مقدمته (استغرب بعض الناس حينما قلت: انني أستطيع أن أكتب من تفسير سورة الفاتحة وقر بعير، وإنني لازلت أقول هذا القول ولابرهن على ذلك؛ فان بين يدي القارئ مجلداً كاملاً في تفسير سورة الفاتحة فقط) ونحن لا ندعي أن الفخر الرازي أو ابن عربي أو المحاسبي استطاعوا تفسير القرآن بالكون أو العكس، وإنما قدموا مؤشرات.

ومن معارضي هذا الاتجاه: كمثال الذهبي[1] فقد قال: إن تفسير الرازي (فيه كل شيء إلاّ التفسير)... ورد عليه ابن السبكي[2] قائلا: (عفا الله عن الشيخ الذهبي لقد كان تفسير الرازي فيه كلّ شيء مع التفسير). ويقول الرازي: (يقولون لقد أكثرت في تفسير القرآن من ذكر علم الفلك والهيئة وغيرها. والجواب انني ما أكثرت، ولكن القرآن يشير الى ذلك). وقد قال

---

(١) الذهبي هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، تركماني الأصل، من أهل دمشق، شافعي، حافظ، مؤرخ، كان محدث عصره سمع عن كثيرين بدمشق وبعلبك ونابلس برع في الحديث وعلومه وكان يرحل اليه من سائر البلاد وكان فيه ميل الى أراء الحنابلة من تصانيفه (الكبائر) و(تاريخ الاسلام) في (٢١) مجلداً و(تجريد الاصول في أحاديث الرسول) (ولد ٦٧٣ هـ ـ وتوفي ٧٤٨ هـ).

(٢) ابن السبكي هو عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام السبكي ولد بمصر سنة ٧٢٧ هـ من مصنفاته (الأشباه والنظائر) في الفروع الفقهية و (ترشيح التوشيح) في أصول الفقه و(الابهاج في شرح المنهاج) للبيضاوي و (الدلالة على عموم الرسالة) وغيرها.

الرازي في موسوعته التي حوت مائة علم: (لو شئت أن آتي بأصولها من القرآن لفعلت).

عاقبة التفريق بين القراءتين

ولا شك أننا إذا لم نستطع الجمع بين القراءتين، لم نكن مؤهلين لحمل أمانة الاستخلاف. فالربط بين أسس أركان الدين، وقيم الدين، وبين قوانين الوجود، لا يخفى على متأمل. وفي القرآن إشارات أكثر من أن تحصى.

اثر التفريق بين القراءتين في الفكر الغربي

ولكن القوانين الطبيعية قد اكتشفها الأوربيون أصحاب البعد الواحد؛[(١)] وقد كانوا خارجين من معركة مع الكنيسة، وأبعدوا كل فكر ديني على أن يكون له علاقة بهذا الشأن، واختلقوا لقوانين الطبيعة قوانين ونهايات، واحالات مختلقة من أنفسهم بحسب أهوائهم. فهناك ـ عندهم ـ البعد الوضعي[(٢)] المسيطر على العلوم الطبيعية... وهناك البعد اللاهوتي[(١)] الذي

---

(١) البعد الواحد: كمصدر للمعرفة المقصود به بصورة عامة النظر الى الكون وحده بغض النظر عن المصدر الأساسي وهو الوحي أو النظر الى الوحي والدين وقطع العلاقة مع الكون والواقع.

(٢) عندما دخل القرن الثامن عشر كان الفكر الغربي قد قطع اعظم الاشواط في التحرر من الفكر الديني حتى أطلق على العصر (عصر التنوير) ولم يكن يقصد من التنوير سوى إبعاد الوحي من التوجيه، وأهم مميزات ذلك العصر هو الإيمان بقدرة العقل على فهم الكون، وهذا الاتجاه الذي يعلى من شأن العقل ويحط من شأن الدين، كانت أهم مميزاته:

سيطر على مقومات النظر الى أســس القيــم الدينيــة... وكــأن الإنســانية ـ نتيجة النظر بالبعد الواحد ـ قد أصيبت اصابتين:

الأولى: استبداد التأويل الوضعي المادي بأســـس العلــوم الطبيعيــة. الآن مصابة بحالة توقف مناف لطبيعتها، فلذلك تخلت من الاجابة عن الســؤال بلماذا؟ الى جواب السؤال بكيف؟

الثانية: تكريس الوحي اللاهوتي في النظر الى الوجود وحركتــه في إطــار جبرية غيبية تتجاوز مدارك الإنسان وتتركه يستبد بــالوعي الديــني كلــه. فكانت البشرية أن وقعت بين منهجين، أحلاهما مرّ.

منهج مادي في تصوره للكون والحيــاة والإنســان وأكــبر ممارســة علميــة

أ – شعور العقل بمقدرته على أن يأخذ مستقبل الإنسانية بعد إزالة كــل عبوديــة الكنيسة.

ب ـ إخضاع كل حدث تاريخي لامتحان العقل.

ج ـ الايمان بالتعاون الانساني على أساس الثقافة العالمية لا الدينية (انظــر: منــهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية د. محمد أمزيان ص ٣٩).

(١) البعد اللاهوتي: هو طريقة الكنيسة في التفكير وكان هذا التفكير، يتجــه اتجاهــا معاكسا تماماً للحقيقة والواقع وظل موغلا في ميتافيزيقيا عقيمة، احتكرت به الكنيســة مجال التفكير وحرمت كل تفكير يخالف تقاليد البابويــة وزاد مــن حــدة هــذا الجمــود سيطرة التفكير الارسطي الصوري، وظل التفكير العلمي خامداً طوال الفترة الــتي امتــد فيها نفوذ الكنيسة التي تدخلت تدخلاً قسرياً مباشراً في كل مجالات الحياة واضطهدت كل اسلوب علمي في التفكير (انظر: منهج البحث الاجتماعي بــين الوضعيــة والمعياريــة، ص ٣٤).

يمكن اكتشافها هي الوحدة بين المتضادات.. والمنهج اللاهوتي قصارى ما وصل اليه هو المقارنة بين العلم والدين. فلابد أن نخرج من المنهجين الى منهج يعيد الى الإنسان توازنه، وهو منهج الجمع بين القراءتين، ولذلك تصبح هذه القراءة أساسا لا يمكن تجاوزه. غير أن الجهد البشري ذا البعد الواحد الذي حاوله البشر في دراسة القرآن معتمدين على المعجم اللغوي فقط أو بقراءة القرآن آية آية للخروج بالحكم الفقهي فقط لا يغني هذه القراءة[1].

مشكلة القراءة الواحدة

نأتي الى الآية السادسة من سورة العلق ﴿كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى، إن الى ربك الرجعى﴾[2] بين الله تعالى أن الإنسان يمكن أن يطغى ويتجاوز كل الحدود، ويمكن القول هنا ان الإنسان إذا مال الى القراءة الواحدة فإنه سيتجاوز الحد. والطغيان يكون بالتعالي أو الهبوط عن الموقع الذي يكون الإنسان فيه[3].

---

(١) البعد الواحد في النظر الى القرآن والنظر الجزئي والاقتصار على المعجم اللغوي من العوامل التي أعاقت حركة الأمة وحصرت الاسلام في الصور الجزئية الشكلية والقوالب اللغوية واللفظية، فحينما بعد عهد الناس بالرسالة تجسد دور القاموس اللغوي في فهم النص على وسائل وعناصر التفسير الأخرى، وظل دور القاموس يتضخم حتى طغى لدى البعض على سائر الوسائل الاخرى وأصبح الوسيلة الوحيدة للفهم والتفسير.

(٢) سورة العلق الآيات ٦ ـ ٨ وتفسيرها: حقاً إن الإنسان ليتجاوز الحد في الطغيان وباتباع هوى النفس ويستكبر (انظر: الصفوة: ٣، ٥٨٢).

(٣) معنى الطغيان في اللغة هو مجاوزة الحد ومنه قوله تعالى ﴿انا لما طغى الماء

آثار القراءة الواحدة في تاريخ البشرية

وحين نستعرض تاريخ البشرية كلها نجد أن الإنسان حينما اكتفى بقراءة واحدة، أدى ذلك الى فوارق لا حصر لها. فالحضارة الفرعونية قرأت في الكون وتطورت في الزراعة والصناعة، ولكن دون هداية الوحي... وكذلك الهكسوس... والفرس... والحضارة الهيلينية...

كذلك فإن البشر قد يبتلون بعدم القراءة الموضوعية للكون، فيبتلون بتحقير الدنيا.. ويعدون كل شيء سوى العمل الروحي شيئا لا قيمة له. ولا توجد حضارة متوازنة إلاّ التي جمعت بين القراءتين: عين تنظر الى الكون فتعمل على إصلاحه، وعين تنظر الى الوحي. أما إذا تجاوزت القراءتين الى قراءة واحدة فهناك الطغيان ﴿كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾.

فحضارتنا الاسلامية لم تتدهور إلاّ عندما اختل عندها الجمع بين القراءتين... والحضارة الغربية اليوم أيضاً تنظر الى الكون فقط، فاختل عندها الجمع بين القراءتين، فكل مظاهر الفساد في هذه الحضارة ناجمة عن أحادية النظر دون الجمع بين القراءتين.

مفهوم العبودية عند الجمع بين القراءتين

قال تعالى: ﴿فلا تضربوا لله الامثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1].

حملناكم في الجارية﴾ اي لما زاد الماء عن حده وكان سيلاً جباراً وطوفاناً مغرقاً.

(١) سورة النحل الآية ٧٤ . تفسيرها اي لا تمثلوا لله الامثال، وتشبهوا له الاشباه فانه تعالى لا مثيل له ولا نظير ولا شبيه وانتم لا تعلمون قدر عظمة الخالق (صفوة

﴿وضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً﴾[1]. ﴿وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه﴾[2]. يقولون: (الفكر هو تقليب الذهن في الشيء). وقبول الفكرة يتوقف في كونها معقولة بمعنى أنها لا تنبو على العقل الفطري. والإنسان يولد بمسلمات قبلية، ولكن المنهجية الوضعية الناقصة تحاول نقض جميع المسلمات، حتى تلك التي ولد بها.

المنهجية الوضعية وادعاء العالمية

فالعقل المنهجي[3] قد أحال المنهج العلمي[1] على المعاش، وحاول اخضاع

التفاسير ٢/ ١٢٤).

(١) سورة النحل الآية ٧٥ . تفسيرها: هذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه وللاصنام التي اشركوها مع الله جل وعلا اي مثل هؤلاء في اشراكهم مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك يتصرف في امره كيف يشاء مع انهما سيان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى فما الظن برب العالمين حين يشركون به اعجز المخلوقات(انظر: الصفوة ٢/ ١٢٦).

(٢) سورة النحل الآية ٧٦ تفسيرها: هذا هو المثل الثاني الذي ضربه الله للتفريق بين الإله الحق والأصنام الباطلة قال مجاهد: هذا مثل مضروب للوثن والحق تعالى (انظر: مفتاح الغيب للرازي: ٢، ٩٢) فالوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا يقدر على شيء؛ لانه إما حجر أو شجر (انظر: الصفوة ٢، ١٢٦).

(٣) العقل المنهجي: يقصد بالعقل المنهجي هنا ذلك الاتجاه الذي حدد إطاره العام ووضع أسسه الكلية وفق قواعد محددة التزم بها وسار عليها، وهذا العقل المنهجي مقصود به كما هو واضح في السياق عقل المنهجية الوضعية الذي استند على عدة

كلّ شيء ادعاءً منه لتحقيق عالمية المنهج، ولكننا نرى أن العالمية قد تحققت من قبل دون عقل المنهجية الوضعية هذا، لقد تحققت على أسس دين عند الهيلينين على يد الاسكندر الأكبر[٢]، وعالمية الرومان، والعالمية الاسلامية، كلها تحققت دون ان يكون المنهج الوضعي المعاصر قائماً، فالمنهج الوضعي يدعي أنه يريد أن يقيم عالمية، ويضع العلم على عرشها، فالعالم يكون ذا محتوى علمي والقيادة العسكرية ذات محتوى منهجي فالمنهج الوضعي يحاول إلغاء الفوارق الفكرية الجوهرية في توحيد صارم وخطوط عامة لا يمكن تجاوزها.

احتواء الوضعية للعلوم الاجتماعية

وقد حاول هذا المنهج ادخال العلوم الاجتماعية الى حدوده الصارمة... وقد عد البعض ذلك انجازاً كبيراً، فلم تعد هناك فوارق أو خصوصيات،

مسلمات مثل (أن الدين والعلم ضدان لا يجتمعان وعدوان لا يتصالحان) وكل منهما يسعى لتدمير الآخر واعتبار الحس وحده مصدرا للمعرفة الاجتماعية واعتبار النموذج الطبيعي سلطة مرجعية للعلوم الانسانية واخضاع الظواهر الاجتماعية للتجريب واختزال الحقيقة الاجتماعية في جوانبها المادية واحلال النسبة محل المطلق في دراسة الظواهر الاخلاقية وتبرير مشروعية النزعة الالحادية وغير ذلك.

(١) يقصد بالعقل العلمي تلك النزعة التي تسعى الى تكوين الافكار والآراء التي تطابق الحقيقة والواقع.

(٢) الاسكندر: هو الاسكندر المقدوني يقال إنه هو ذو القرنين الذي ورد اسمه في القرآن.

ولم يعد العلم ممزقاً[1].

هناك مشكلة النظام العالمي الجديد الذي يحاول إلغاء خصوصيات الشعوب وتوحيدها في إطار واحد، فالتاريخ والحضارة والايدلوجيا[2] الاخرى في هذا النظام لا تشكل غير ثقافات يتسلى بها وهكذا. فالذين يفصلون بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنسانية. سيواجهون مأزقاً. إذ ان العلوم الاجتماعية والإنسانية في المنهج الوضعي تصب في العلوم الطبيعية.. أي لا فصل بين الإنسان والطبيعة...

---

(١) دخول العلوم الاجتماعية في المنهج التجريبي هو من مستلزمات النموذج الطبيعي، وكان ذلك من أهم نتائج المنهجية الوضعية على العلوم الانسانية واحدى الخصائص الاساسية فيها، وهذه النزعة أصبحت منتشرة ولها ممثلون في مختلف المدارس وقد اصطلح على تسميتها بـ (التجريبية العلمية) وتندرج تحتها جماعات وأشخاص تنتمي الى مذاهب كثيرة أهمها الوضعية المحدثة والنقدية والتجريبية والوضعية التجريبية المنطقية والاجرائية، ولا تختلف هذه المدارس إلاّ في التوكيد على جانب دون جانب والهدف هو تحقيق العلمية وعدم حاجة العلوم الاجتماعية ـ حسب رايهم ـ الى مواقف فلسفية.

(٢) قد شاع بين الكتاب الاجتماعيين أن الأيدلوجية تعني نظاماً من الافكار المتداخلة كالمعتقدات والتقاليد والمبادئ والأساطير التي تؤمن بها جماعة معينة وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية وتبريرها في نفس الوقت. وتقوم الأيدلوجيا بمهمة التبريرات المنطقية والفلسفية لنماذج السلوك والاتجاهات والأهداف وأوضاع الحياة العامة السائدة (انظر قاموس علم الاجتماع د. محمد عاطف غيث ص ٣٠٤). ويتسم دائما هذا المسلك بالنزعة الذاتية.

ضرورة قيام معركة لمواجهة المنهج

في أسلمة المعرفة الآن نواجه هذا المأزق، فلا بد إذاً من مواجهة المنهج وقيام معركة معه... فالمنهج العلمي قد أنفقت فيه البشرية الكثير، ووصل الى انجازات هائلة، وهذه الانجازات لا نستطيع أن نتنكر لها، ولكن نستطيع أن نقوم بشيء آخر، وإن ندرس هذا المنهج العلمي دراسة واعية وطرائق تعامله مع العلوم الاجتماعية والإنسانية، وتحديد الموقف الذي ينبغي أن نقفه منه.

القرآن الكريم ومعالجته للمشكلة

القرآن الكريم في عالم اليوم المؤسس على الضوابط العلمية المنهجية، المقيد بالعلم الذي نتجاوز به الأزمات، يقوم بعمل خاص، وهو أنه يأتي الى المنهج العلمي التجريبي، ويعقد معه اتفاقاً يقوم على نقض احالاته الفلسفية، فيقول له:

ـ اين إحالاتك الفلسفية؟

ـ لقد قطعت صلتي بكلّ ما لا يخضع للمختبر.

ـ فكيف تعالج أزمتك؟ ألا ترى أنك في أزمة؟.

ـ الا ترى أن العلوم الطبيعية قد توقفت عن امتداداتها وهي الآن تجتر ما بنته سابقاً في اطار المدد الذي أعطيته لها؟.

ثم يصل الحوار في نهايته الى أن القرآن يحافظ على الانجاز العلمي، ويربط بين الدنيا والآخرة، ويعطي المنهج العلمي الامتداد ويطالبه أن يتخلى عن وضعيته، ويؤكد أن هناك تواصلاً بين قوانين الطبيعة، التي كشف المنهج العلمي عنها وبين قوانين الوجود التي على أساس منها ركبت

القيم التي جاء بها. فالقرآن يقدم للمنهج العلمي الإحالات الفلسفية بدلاً عن الوضعية، فيخرجه من أزمته، ويخرج انجازاتـه مـن أزمتـها. والقـرآن لا يفصل بين العلوم الطبيعية والإنسانية ـ كما تفعل اليهودية والنصرانيـة... وإنما يؤكد هذه الصلة كما في قوله تعالى: ﴿لخلق السـموات والارض أكـبر من خلق الناس﴾[1]. ويتفق القرآن مع المنهج العلمي في ربط الكلي بالجزئي، وربط الأجـزاء الى الكليـات، وربـط الكـثرة الى القلـة العلميـة. فـالقرآن لا يعارض المنهج العلمي التجريبي ولكن يوجهه ويرشده.

مشكلة التراث الغربي

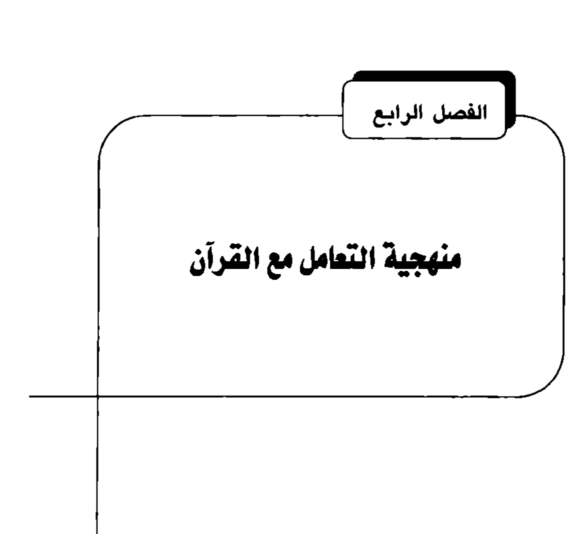
والتراث الغربي حذر جداً من فكرة الدين، والقرآن كتاب سماوي ديـني، وهنا سيعترض المنهج الوضـعي للقرآن، فيقول له: انا لا أتحالف معك، لانك سترجعني الى العقل الفطري ونحـوه، وأخشـى أن تشـدني الى مـا عـانيت طويلاً في التخلص منه في الماضي.

مشكلة التراث الاسلامي

وعند عقــد القـرآن الكريـم للاتفاقـات مــع المنــهج العلمــي التجريـبي، سيعترض الـتراث الاسـلامي المحمـل بـالكم الهـائل مـن علـوم الوسـائل والمقاصد، التي شكلت خلفياتنا الفكرية والثقافية والعلمية. ويقول: إن ذلـك سيؤدي الى نبذ الكثير من مقوماته وبتر أشياء كثيرة جدا منه. فكيف تحــل هذه المشكلة رغماً عن التراث الغربي وتراثنا؟

---

(١) سورة غافر الآية ٥٧.



الفصل الرابع

منهجية التعامل مع القرآن

الظاهرة الاجتماعية وكيفية التعامل مع القرآن

نحاول أن نقارب منهجية التعامل مع القرآن كمصدر للمعرفة الانسانية والاجتماعية، فأسلافنا قد قدموا لنا في أصول الفقه منهجية[1] للتعامل مع القرآن والسنة، باعتبارهما مصدرين للمعرفة الفقهية والأحكام الشرعية، وما يعرف عند الأصوليين بالأحكام المشتركة بين الكتاب والسنة عبارة عن منهجية التعامل مع الكتاب والسنة، ومن المعلوم ان القضية الفقهية تختلف عن الظاهرة الاجتماعية، فللظاهرة الاجتماعية خصائصها، وللقضية الفقهية صفاتها وخصائصها، كذلك القضية الفقهية تتطلب حكما بأن يقال هذا حلال وهذا حرام الى غير ذلك من أحكام تكليفية[2].

أما بالنسبة للظاهرة الاجتماعية فإنها تحتاج الى محاولة لادراك الظاهرة وعناصرها، وما وراءها، وما قد ينتج منها، ثم يأتي بعد ذلك نوع من النسبة والتصور، وهو ما يسمى بالحكم المنطقي؛ وهو ادراك الشبه بين

---

(١) أصول الفقه هو مجموع طرق الفقه على الاجماع وكيفية الاستدلال لها وكيفية حال الاستدلال بها.

(٢) الحكم التكليفي خمسه أنواع هي: الايجاب والندب والتحريم والكراهة والتخيير وأثرهما في الافعال: الوجوب والندب والحرمة والكراهة والاباحة (أنظر: أصول الفقه للشيخ محمد الخضري، ص ٣٠).

الشيء والشيء الآخر؛ لاعطاء تصور بأن هــذا الشــيء ضــار أو نــافع أو مردود، فالظواهر الاجتماعيــة يغلـب أن تكـون مقاربتـها بــهذه الطريقـة. فبالتالي إذ كنا نتفق على أن البــارى جـل شـأنه لم يفـرط في الكتـاب مـن شيء[1] وأن القرآن العظيم وبيان رسول الله صلى الله عليه وآله وســلم في سنته كافيان لتقديم سائر عناصر الهداية لنا، فذلك يعنى أننا نســتطيع أن نجد في الكتــاب والســنة مصدريـن لهدايتنــا، وإعطائنــا الوجهــة المطلوبــة لتصوراتنا، أو انمائها بحيث تكون قادرة على تحديد الحسن من القبيح من الظاهر الاجتماعية.

بين منهج العلوم الاجتماعية والمنهج الاصولي

إذا كان الامر كذلك فهل نستطيع أن نستعمل نفس منهج الاصوليــين في إطار الظواهر الاجتماعية، أم يجب ادخال كثير من التعديــلات والاضافــات على هذا المنهج، أو تطويره بشكل أو آخر ؛ لنبني عليه منهجاً للتعــامل مــع الكتاب والسنة كمصدرين أيضاً للظواهر الاجتماعية؟

الذي نستطيع أن نقوله بداية: هو أنه لا بــد مــن وجـود منـهج آخـر[2]

---

(١) هذه إشارة الى قوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.

(٢) ينبغي أن يكون للدراسات الاجتماعية منهج آخر غير منهج أصول الفقه الــذي يرتبط باخضاع الأحكام الشرعية لادلتها التفصيلية أما إذا تجــاوز هــذا المنــهج دائـرة التشريع ليمتد الى مجالات المجتمع والفكر والثقافة التي يحملــها الانســان عـن الكـون والحياة، فهذا هو المراد حيث يقصد به صياغة الافكار والثقافة وفق الاصول الشــرعية الكلية حتى تأخذ الصفة الدينية التي تستمد شريعتها من عقيدة التوحيد وهــو المـيزان الذي تــوزن بــه كـل المنطلقــات والتصــورات، وتضبــط بــه كـل الأراء والفلســفات

لمقاربة الظواهر الاجتماعية والانسانية، ولكن هذا المنهج لابد أن يستفيد من منهج أصول الفقه على الأقل في منهج مباحث الألفاظ[1] ذلك أننا أمام خطاب قرآني وخطاب نبوي.

وهذا الخطاب قد صيغ في الفاظ عربية، وأصول الفقه قد اشتملت في مباحثها المشتركة على كثير من المباحث المتعلقة بقضايا الألفاظ والتعامل معها في هذا المجال فيمكن أن نأخذ من أصول الفقه كما أخذ من غيره من العلوم الى أن اصبح علما قائما بذاته[2].

منهج مغاير للمنهج القائم

فلو استمر الحال هكذا الآن، مع استهلاك الأمة الاسلامية للعلوم الاجتماعية كما أنتجها الغرب، (فهذه العلوم قد أنتجت من خلال بعد واحد

والمعتقدات مهما تعددت منابعها ومفاهيمها. وللدكتور محمد محمد أمزيان أراء جيدة جدا حول هذا المضمار في كتابه (منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية).

(١) مباحث الالفاظ في أصول الفقه هي طرق معرفة اللغة والأسامي الشرعية وتقسيمات اللفظ ودلالة اللفظ وعبارة النص واشارة النص واقتضاء النص ودلالة المنطوق ودلالة المفهوم والترادف والاشتراك والعموم والخصوص بكافة تقسيماتهما وغير ذلك.

(٢) علم أصول الفقه علم قائم بذاته مستقل عن غيره، ولكن له مقدمات لا يستطيع الاستغناء عنها، وقد استمدت هذه المقومات من علوم اخرى كعلم المنطق الارسطى الذي اعتاد الكاتبون في الاصول من المتكلمين أن يقدموا لكتاباتهم عليها كمباحث الدلالات اللفظية وأقسامها وانقسام اللفظ الى تصور وتصديق كما استقى بعض مقدماته من علم الكلام والمباحث اللغوية.

لا يعتد بالوحي مصدراً للمعرفة بحال).

فذلك يعنى أن معاناة المسلمين وانقسامهم الى: علماني[1] واسلامي وديني وغير ديني أمر سيبقى الى ما شاء الله، لأن هذه العلوم الاجتماعية والانسانية تعتبر هي المكون للعقل الانساني المعاصر. وإذا كان هذا العقل متجاهلا للوحي متنكرا له فان الأمة ستظل منقسمة. فبدلا من أن نحمل الاسلام الى سوانا سنظل نتقاتل فيما بيننا، ويدوم الصراع.

فلابد من الخروج من هذا المأزق، ولذلك كانت فكرة أسلمة أو تأصيل العلوم، لمحاولة إعطاء منهج ومنطق مغاير للمنهج القائم، يعتبر الوحي مصدرا أساسيا للمعرفة، وما دمنا ننادي بذلك فلا بد من تقديم مناهج للتعامل مع هذا المصدر حتى تصح الدعوى، ويتمكن الباحثون من الوصول الى هذا الهدف.

النموذج المعرفي والجمع بين القراءتين

ان الجمع بين القراءتين أهم محدد منهجي لبناء معرفتنا سواء كانت معرفة كونية أم اجتماعية أم انسانية، لماذا؟ لأن الجمع بين القراءتين ـ

---

(١) العلمانية أو اللادينية (secularism) هي حركة كونية شاملة غطّت كل جوانب الحياة ووصلت الى كل أطراف العالم، وهي ثورة بدأت في الغرب وامتدت الى كل العالم، وهي رؤية مادية محضة بالدرجة الاولى، تفترض أن الخالق غير موجود أو موجود ولكنه مستبعد من النموذج المعرفي، وهو مسؤل عن البدايات وربما النهايات فحسب أما ما بينهما فلا، إذ هذا عندهم خاضع للقوانين الآلية الكامنة في المادة، وهي رؤية أحادية للواقع، فالعالم مادة لا قداسة له ولا أسرار ولا حرمة، (انظر: المعرفة بين الاسلامية والعلمانية د. محمد الحسن بريمه، ص ٤ ـ ٥).

قراءة الوحي وقراءة الوجود ـ هو المخرج لا للمسلمين وحدهم، بل للعالم كله من أزمات المعرفة المعاصرة، وما أدت اليه.

إن كل المحاولات السابقة في تراثنا لم تكن إلاّ على نماذج معرفية، هناك مقالات الاسلاميين أحصى الشهرستاني فيها ما يزيد عن سبعمائة فرقة، انقسم المسلمون اليها بحسب مقولاتهم، ومقالات هذه الفرق لم تكن إلاّ النماذج المعرفية الصغرى التي انطلقت كل فرقة منها لبناء مقولتها.

وكتب الأشعري[1] كتابه المعروف (مقالات الاسلاميين). وكتب الاسفراييني (التبصير في الدين)، وكتب الزبيدي (الحور العين)، وكتاب الرازي (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين) الى غير ذلك، كل هذا كان يدور حول المقالات التي لم تكن إلاّ نماذج معرفية خاصة لهذه الفرق. وحينما نحاول نقد أي مقولة من مقولات هذه الفرق نجد هذه المقولة: إما متعلقة بالذات الالهية، وإما بصفات الآيات الكريمة التي عدت عند البعض متشابهات[2]، وعند البعض الآخر محكمات[3].

---

(١) أبو الحسن الأشعري علي بن اسماعيل صاحب كتاب مقالات الاسلاميين الشهير، صحب المعتزلة أربعين سنة ثم تخلى عن فكرهم واليه تنسب عقيدة الأشاعرة توفي سنة ٣٢٤ هـ.

(٢) المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه أو احتمل أوجها كثيرة أو هو ما لا يستقل بنفسه واحتاج الى بيان يرده الى غيره ومثال المتشابه المنسوخ وكيفيات الاسماء والصفات الالهية نحو (الرحمن على العرش استوى) و (وكل شي هالك إلاّ وجهه) و(يد الله فوق أيديهم) ونحوه. انظر: مباحث في علوم القرآن ٢٢١.

(٣) المحكم هو ما عرف المراد منه أو هو ما لا يحتمل إلاّ وجها واحدا أو ما استقل ☜

وحينما نقوم بعملية الفحص الدقيق لمقولتهم نجد أن هناك غفلة عن احدى القراءتين، والآن حينما ننظر الى أفكار الشرق أو الغرب، ونحاول ان نحلل أي مقولة فلسفية منها نفتقد أول ما نفتقد الجمع بين القراءتين. عين عوراء[1]!.

يستعمل الإنسان فيها عينا ويغمض الاخرى، فهي قراءة تؤدي به الى نوع من هذه المقولات، فالله قد أرشدنا الى العدالة ودعانا الى الجمع بين القراءتين منذ اللحظة الأولى. (قراءة باسم ربك) في الحركة الكونية تتابع الإنسان من العلق الى الإنسان المسؤول عن إعمار الأرض: قراءة تنظر في الحياة والموت والكون المنشور بين يدي الإنسان. وقراءة أخرى بمعية الله جل شأنه في الوحي الهابط من السماء الذي يكون معيارا للقراءة الاخرى.

كما أن القراءة الأخرى تكون معياراً لحسن الفهم في القراءة الأولى، فبالتالي فإن أي علم من العلوم أو أي نوع من المعرفة يفترض أن نجد فيه أثر القراءتين، فإن أهملت احداهما وبرزت الاخرى، فإنه سيحدث الطغيان، لكن الرابط بين القراءتين ينبغي أن يكون رابطاً منهجياً، وليس بأن أضع شيئاً من القرآن وشيئاً من الكون وأحاول التلفيق[2] بينهما، بل إن عملية

= بنفسه ولم يحتج الى بيان ومثال المحكم: الناسخ والحلال والحرام والحدود والفرائض والوعد والوعيد ونحوه (انظر: مباحث في علوم القرآن. مناع القطان، ص ٢٢١).

(١) العين العوراء هنا كناية عن النظرة الاحادية ذات البعد الواحد التي تنظر الى الكون مجردا وتغمض عينها الأخرى عن الوحي، أو هي العين التي تنظر الى الوحي ولا تنظر الى الكون والواقع الذي سبق أنه كتاب الله المنظور المخلوق المجسم.

(٢) التلفيق هو عدم النظرة المنهجية التي لا ترى الامور رؤية كلية شاملة وإنما =

الجمع هذه من أعقد العمليات فهي عملية تعتمد على منهج علمي، والقـارئ في كلتا الحالتين هو الإنسان المتعامل مع هذا المنهج المنفعل بكلتا القراءتين.

هيمنة المنهجية الوضعية العالمية

لكي نصل الى هذا المنهج المقترح فقد تحدثنا كيـف وصلـت البشـرية الى المنهج التجريبي، ولكن ما علاقة هذا بالإسلام؟ إن هذه المنهجية قربت بـين البشر، وجعلت وحدة البشر مسألة ممكنه اليوم، ونحن نسـمع، أن العـالم صار قرية صغيرة، وهذا الامر لم يكن من قبل، فهناك عالمية انتماء تتبلور، وهناك تراجع للأفكار المغلقة، وهناك مؤتمر عقد مـن أربـع وسـتين دولـة كلف فيه الباحثون بالبحث عن السمات المشتركة بين الشعوب للوصول الى الإنسان العالمي. وهناك مـا سمـي بوحـدة الانسـانية، ووحـدة البشـرية. والإنسان العالمي، على اعتبار القرن الواحد والعشرين هو قرن العالميـة. إذاً فهناك ما يسمى بعالمية انتماء، وعالمية تفاعل بين البشـر، وعالميـة القواعـد المشتركة في التفكير، تجاوزت حتى العقل العلمي لتفرض عليه المنـهج. لقـد أصبح لزاماً على أي خطاب يوجه في عصرنا هذا أن يشتمل على عنصرين:

الأول: ان يبرز فيه الاتجاه العالمي، فلابد أن يتجاوز خطابك خصوصيتك الى عموميات الآخرين.

الثاني: أن يكون الخطاب مصوغاً وفق منهجية التفكير السائدة التي لهـا قواعد مشتركة للفهم بين البشر تقـوم علـى منـهج تجريـبي مفيـد للعقـل

---

*تاخذ الآيات والاحاديث الشريفة والتراث الاسلامي وتنتقـي منـها انتقـاءً عشـوائياً وتحاول تطبيقه على الواقع والحياة.

وللعلم كذلك. فالمنهج هو السيد، الا ترى أن الرسـول صلـى الله عليـه وآلـه وسلم يقوم بعملية التحلية بعد التخلية كما يقول الصوفية، وهي عملية تغيير مفاهيم، كأن يقول من المفلس؟ فيقول أصحابه المفلس من لا يملك درهما ولا ديناراً. فيقول المفلس هو الذي أخذ مال هذا وضرب هذا وشتم هـذا، عمليـة تغير للمفاهيم الموجودة بعد انتـهاء فاعليتـها وشـحنها بمحتويـات جديـدة. الغرب فعل نفس الشيء، فقيم العدل عندك غير العدل عنده، وكذلـك مفـهوم الحق، ومفهوم الإنسان، ومفهوم المرأة، كلها مفاهيم غير ما تعرف أنت.

فإذا لم تجد وسيلة لتصوغ خطابك اليه علـى مسـتوى منـهج التفكـير والقواعد المشـتركة بين البشـر، وهـي قواعـد قائمـة علـى المنـهج العلمـي التجريبي الذي يقيد العلم والعقل، اذا لم تجد الوسـيلة فـانس أن تصـوغ خطابك.

كيفية عرض القرآن عالمياً

أنا الآن عندي مسلمات وبديـهيات، وهـي أن القـرآن معجـز ومتحـدي وخطاب لكل زمان ومكان، فإذا جئنا الى الناس به اليـوم، وقلنـا لهـم هـذا كتاب الله يكفل لكم الهداية، ويخرجكم من أزمـاتكم كلـها، وهـذا صحيـح، ونحن نؤمن به.

سيقولون لنا: حسناً، فمنهج القواعد المشـتركة هل يؤيـد دعـواك هـذه؟ تقول لهم: نعم، يقولون: أعرضوه علينا، فكيف نعرضه؟ هـل أقـرأ عليـهم القرآن، واقرأ ما قاله المفسرون في التراث؟ اننا إذاً لن نتفـق، وهـذا القـرآن جاء لمخاطبة البشر في أي مستوى يكونون، ولاجل ذلك لابد أن يكون فيـه منهج متفوق ومعجز.

فالله إذا كان قد أودع في الكون سنناً وقوانين بنى المنهج التجريبي على أساس منها. والقرآن بحكم كونه معادلاً للكون وحركته، لا بد أن يكون مشتملاً على منهجية مستوعبة ومتجاوزة لهذه المنهجية وغيرها من مناهج البشر.

إن العقل الغربي مغلق تجاه أي كتاب ديني، لأنه فرغ من اتخاذ موقفه من الدين، فالدين عنده شيء أشبه ما يكون بالخرافة، والقرآن كتاب ديني فكيف نتغلب على هذه المشكلة؟ أن القرآن المجيد مشتمل على مجموعة من المحددات المنهجية، هذه المحددات يمكن أن تتغير. فما نعتبره متقدما الآن قد تعتبره الاجيال المستقبلية متخلفا جدا وما هي معالم على الطريق ولا ندعي الاحاطة بهذه المحددات في القرآن ولكن نقول قدر استطاعتنا. فالعلم الحالي تجاوز قضية الثابت والمتغير، ودخل دائرة النسبية، ودائرة الاحتمالية، النسبية[1] التي كانت هي الاساس لقد تجاوزها هي أيضاً. فالآن الغربي في ظل المنهج الحالي إذا قلت له إن الله موجود، لا يقول لك لا، وإنما يقول محتمل، هل كان موسى أو المسيح نبياً؟ يقول لك: محتمل.

فكل شيء دخل دائرة النسبية، ولم يعد هناك ثابت وكل ما عنده متغير، فانا عندما آتى له بالقرآن أقول له: أنا أحل لك مشاكلك وأزماتك، وإن سبب أزماتك هو القراءة الواحدة. وقراءتك معظمها كان صحيحاً، ولكن حين

---

(١) سارت الوضعية في توجيه منهجي جاء كرد فعل قوي على الكنيسة وقد حددت الوضعية موقفها من قضية القيم والمعتقدات، وهذا الموقف الذي تميز بالتأكيد على نسبية القيم ونفي فكرة الثبات عنها وإحلال فكرة التغيير والتطور المطلق مكانه، ولم تعد القيم تعبر عن حقائق في حد ذاتها.

قرأت الكون وحده فقدت عدة أشياء، أستطيع أن أعطيك إياها بعد أن فقدت الوسيلة للحصول عليها، وأنا أحب أن اقول لك: إن منهجيتك القائمة على قراءة الكون وحده أدت بك الى العبثية والعدمية ونهاية التاريخ[1] لانك فهمت الصيرورة باطلاق، فعندما يصير عندك خلل في المنهج تضطرب وترجع الى النسبية والاحتمالية. هي ليست حلا.

ولكن عندي حل وهو أن القرآن حين نقرؤه وتفهمه وننزله على القواعد المشتركة سوف تجد أن هذا الوجود قائم على ثلاثية هي:

١ ـ الله.

٢ ـ الخلق.

٣ ـ الإنسان.

فأنت أغفلت الله والغيب، والصيرورة أدت بك الى العدمية، والعبثية، فالحياة عندك عبث، وليس عندك غاية، فإنك وصلت فيها للقمر، ونهلت من الملذات ما شئت بلا هدف. ولذلك كثر عندكم الانتحار.

معالم منهج التعامل مع القرآن

ولكن لكي تتضح معالم منهج التعامل مع القرآن، فهناك محددات منهجية، يمكن من خلال هذه المحددات أن نخرج بمنهج متكامل، ومن هذه المحددات:

---

(١) إن الاتجاه الذي تسير عليه الوضعية بصيغتها العلمانية تهدف الى حصر الحياة في الحياة الدنيا ثم ينتهي العالم.ويفنى وهو ما عرف بنهاية التاريخ، وهي نظرة مادية محضة تحدث عنها القرآن في عدة مواضع نحو قوله تعالى: ﴿وقالوا: إن هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ الانعام، وقوله: ﴿إن هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ المؤمنون.

المحور الأول ـ إدراك طبيعة لغة القرآن:

لغة القرآن عربية ولا شك، لكن عربية القرآن ليست كأي عربية أخرى[1]، وإلا أوقع ذلك في كثير من اللبس والخطإ، فقد تحكم في بعض الأحيان تصور بانه ما دامت لغته عربية فيجب أن نأخذه بمفاهيم العرب، يقول الاصمعي: (ما كنت أفهم معنى الدهاق حتى ذهبت الى قبيلة من قبائل العرب فسمعت جارية تقول لأمها: يا أماه اسقيني دهاقا[2]، فعرفت أنها تريده كأسا مملوءة).

والإمام الشافعي[3] له كلام جيد في هذا المجال، حاول أن يشير فيه الى أن القرآن وإن كان عربياً فإن لغته متميزة بكل معاني التميز، ونفى ما وقع

---

(١) عربية القرآن ليست كأي عربية أخرى؛ وذلك لأن النظم يختلف عن نظم غيره فالمفردات هي نعم مفردات العربية، ولكن الذي يميز كلاما عن كلام ـ ناهيك عن القرآن ـ هو طريقة نظمه وسبكه، فالمفردات هي مادة خام لم يصنعها المتكلم وإنما يقيم بينها علاقات نظمية خاصة لتدل على فكر ومعنى وإذا كان وجه التفاضل هو ذلك وغيره فهو في القرآن بصورة أكثر ظهورا حيث انها معجزة لا يستطيع الإنس والجن الاتيان بمثلها وإن تعاونوا وكانوا يدا واحدة.

(٢) كأسا دهاقا أي: مملوءة، يقال ادهقت الكأس أي ملأته قال الشاعر: (انظر صفوة التفاسير: ٣ / ٥٠٧)

آتانا عامر يبني قرانا فاترعنا له كاسا دهاقا

(٣) الامام الشافعي محمد بن أدريس بن العباس بن عثمان بن نافع من بني المطلب من قريش وأحد أئمة المذاهب الاربعة، جمع علم الفقه والقراءات والأصول والحديث واللغة والشعر، ولد عام ١٥٠ هـ كان ذكيا نشر مذهبه بالحجاز والعراق ثم انتقل الى مصر ونشر فيها مذهبه أيضاً سنة ١٩٩ هـ وبها توفي سنة ٢٠٤.

فيه كثير من العلماء من أن القرآن فيه كثير من الألفاظ غير عربية[1].

يقول: ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلم من يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب شيء منه على عامته؛ بحيث لا يكون موجودا من يعرفه، والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، ولم نر رجلا جمع السنة فلم يذهب منها بشيء، وعلم أكثر اللسان[2] في أكثر العرب أعم من علم أكثر السنن في العلماء) ثم يقول: (فإن قال قائل: ما الحجة في أن كتاب الله محض في لسان العرب لا يخلطه فيه غيره)، قلنا: إن الحجة فيه كتاب الله يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾[4]. وقال: ﴿حم

---

(١) اختلف العلماء في وقوع اللفظ غير العربي في القرآن، فالاكثرون ومنهم الامام الشافعي وابن جرير وابو عبيدة وابن فارس على عدم وقوعه وقد شدد الشافعي النكير على القائل بذلك وقال ابن جرير: ان تلك الألفاظ فيها توارد لغات فتكلمت بها الفرس والعرب والحبش وقيل: إن العرب لمخالطتهم لسائر الألسنة في أسفارهم علقت الالفاظ في لغتهم حتى جرت مجرى العربي الفصيح ووقع بها البيان وقال آخرون هي الفاظ عربية صرفة، ولكن لغة العرب متسعة جدا ولا يبعد أن تخفى على أكابر العلماء وقيل: إن العرب سبق لهم التحدث بها. ثم انتقلت الى غيرهم، وهذه الالفاظ المختلف فيها مثل (الارائك) قالوا هي السرر بلغة الحبش (وأباريق) هي طريق الماء بالفارسية و (أسفار) هي الكتب بالسريانية.

(٢) اللسان هو اللغة، عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته الآلية.

(٣) سورة ابراهيم الآية ٤.

(٤) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ ـ ١٩٥.

والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾[1]. وقال: ﴿قرآناً عربياً غير ذي عوج﴾[2] فأقام حجته بأن كتابه عربي ونفى عنه كل لسان غير لسان العرب.

فقال: ﴿قد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾[3]. وقال: ﴿ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته﴾[4]. ويستمر الشافعي فيقول: (على كل واحد أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أنه لا اله إلاّ الله ويتلو به كتابه). وهذا محدد منهجي هام لفهم كتاب الله.

المرجع في فهم لغة القرآن

لكن الذي لابد من فهمه هو هل المرجع في ذلك لغة البداوة؟ روي ابن جني[5] في خصائصه عن عمر بن الخطاب: (عليكم بالشعر ديوان الجاهلية فان فيه معاني كتاب الله)، أو نحو هذا. فكل من له أدنى إلمام باللغة يعرف أن اللغة تعبير عن أفكار. والبدوي ليس له كل افكار القرآن، فالقرآن يقول: ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك﴾.. ففكرة اللغة ينبغي أن لا تحمل على عواهنها، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم أرشدنا الى أن القرآن يفسر

---

(١) سورة الزخرف الآيات ١ ـ ٣.

(٢) سورة الزمر الآية ٢٨.

(٣) سورة النحل الآية ١٠٢.

(٤) سورة فصلت الآية ٤٤.

(٥) ابن جنى هو عثمان بن جنى كان أبوه روميا يونانيا، ولد في الموصل ٣٢٠ هـ من كبار علماء اللغة من أشهر مؤلفاته الخصائص.

بعضه بعضاً[1]، وكلمة الصلاة[2] لا تعني غير الدعاء كقول الأعشى[3]:
صلى على دنها وارتسم[4] ولكن في القرآن لها معنى خاص: أقوال وأفعال ودعاء؛ مفتتحة بتكبير، مختتمة بتسليم، ولذلك اضطر الأصوليون لأن يقولوا: الصلاة حقيقة في الدعاء مجاز[5]في اقوال مفتتحة بتكبير مختتمة بتسليم، فادخلوا المجاز كوسيط، وبعضهم قال؛ لا، الصلاة حقيقة شرعية.نقلها الشارع من اللغة الى الشريعة لتصبح حقيقة شرعية.

---

(١) القرآن يفسر بعضه بعضاً، ويحمل مطلقه على مقيده، ومنسوخه على ناسخه، وعامه على خاصه وهو بصورة عامة يؤخذ بعضه على بعض من حيث تبين بعض آيات لآيات أخرى.

(٢) الصلاة معناها في اللغة الدعاء والاستغفار والصلاة من الله تعالى الرحمة وقال عدي بن رقاع:

صلى الإله على امرئ ودعته　　　وأتم نعمته عليه وزادها

وقد وردت بمعنى الدعاء أيضاً في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا دعى أحدكم الى طعام فليجب فإن كان مفطراً فليطعم وإن كان صائماً فليصل) يعني فليدعوا لأرباب الطعام بالبركة والخير.

قال تعالى هو الذي يصلي عليكم وملائكته فيصلي بمعنى يرحم وملائكته يدعون للمسلمين والمسلمات (لسان العرب لابن منظور: ١٤، ٤٦٤ ـ ٤٦٥).

(٣) الأعشى شاعر جاهلي أحد الشعراء الاربعة المقدمين في الجاهلية. كان يسمى صناجة العرب لجودة شعره،أدرك الاسلام فأسلم ومدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقصيدية دالية، ثم اغرته قريش ببعض الابل على أن يؤجل اسلامه عاماً فقبل ومات على كفره قبل تمام العام.

(٤) وهي عجز بيت في قصيدة للأعشى في وصف الخمر. (انظر: لسان العرب: ١٤، ٤٦٤).

(٥) المجاز هو اطلاق لفظ وارادة معنى آخر له علاقة بمعنى اللفظ المطلق.

الشارع من اللغة الى الشريعة لتصبح حقيقة شرعية.

وكذلك الايمان[1] فهو التصديق في اللغة، وكذلك الحال بالنسبة الى الزكاة[2] فهل هذا هو الحل؟. قد يساعد، لكن لابد أن نلاحظ أن للقرآن لغته، فالقرآن لغة خاصة، وأهم مصدر لفهم القرآن هو القرآن ذاته.

فمن هنا إذا أدركنا هذه المؤشرات أدركنا أن هذا الخطاب القرآني هو خطاب خاص، له لغته ونظمه[3] وأسلوبه وإعجازه، ونزل بلسان العرب تيسيراً ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾[4].

فالله قد اختار هذه اللغة لينزل بها خطابه لذلك أعطاها سمات خاصة، ولكن الخطاب ليس عاديا فهو قد منح هذه اللغة ما تستطيع أن تحتمله، ولذلك تبقى الهيمنة له لا لها[5]، فلغة القرآن معجزة، واللغة العربية غير

---

(١) الايمان معناه في اللغة التصديق قال تعالى: ﴿قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ قال ابن منظور: هذا موضع يحتاج الناس الى تفهمه وأين ينفصل المؤمن من المسلم وأين يستويان (انظر: لسان العرب: ١٣، ٢٢ ـ ٢٣).

(٢) الزكاة من قولهم زكا أي نما وزاد وصلح، والزكاة هي الصلاح (لسان العرب: ١٤، ٣٥٨). فاخذت هذه اللفظة في صيغة معاني شرعية.

(٣) النظم هو إقامة العلاقة بين مفردات اللغة وربطها بوشائج التركيب النحوية حيث تشكل كلاماً يدل على معاني وافكار الناظم، وأول من قر هذه النظرية بعد تمهيدات بعض العلماء هو عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز.

(٤) سورة مريم، الآية ٩٧.

(٥) قواعد اللغة هي القواعد المستنبطة من كلام العرب ومن أشعارهم، وهذه القواعد يجب أن يكون الاصل فيها هو التعبير القرآني بحيث يكون هو المرجع في ذلك ويكون القياس عليه لا العكس.

معجزة، وهي متحدى بها، واللغة العربية ليست كذلك، فلغته عربية، ولكن عربية متميزة خاصة.

المحور الثاني ـ وحدة القرآن البنائية:

فالقرآن جسم واحد، وعضو واحد، والله سبحانه قد نفى أن يكون القرآن مفرقاً مجزءاً، وقد سخر من أولئك الذين جعلوه أجزاء متفرقة كما قال: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين﴾[1]. وعضين: أي أجزاء متفرقة يقول ابن كثير: ﴿هؤلاء الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض﴾.

ولكن المعنى لا يقتصر على ذلك. وهذه الوحدة؛ يقول بعض العلماء: إنها على مستوى السورة، فالسورة تشكل بناءً، وللسورة عمود حين تكتشفه تستطيع أن تكتشف المحاور الكبرى للسورة، فهي وحدة بنائية على مستوى الآية والسورة ومستوى القرآن كله. والوحدة البنائية تعني أن هناك علاقة رابطة بين أحرفه، وبين الكلمة والأخرى، وبين الآية والآية، وبين السورة والسورة داخل ما بين الدفتين. وفي تراثنا لا نجد لهذه الوحدة أثراً كثيراً، وإنما قد نجد إشارة لها عند ابن هشام[2]. أو عند ابو علي الفارسي[3] او عند المحاسبي[4] في معرض كلامه عن معادلة القرآن

---

(١) سورة الحجر الآيتان ٩٠ ـ ٩١.

(٢) ابن هشام هو جمال الدين عبد الله ابن يوسف المصري ولد في القاهرة وتوفي فيها، كان من كبار علماء اللغة والنحو، له عدة مؤلفات مثل: أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك.

(٣) أبو علي الفارسي هو الحسن بن احمد بن عبد الغفار من كبار علماء اللغة.

(٤) المحاسبي تقدم ذكره.

للكون، ونجدها كذلك عند الأصوليين في دائـرة الأحكـام، وكلـها إشـارات للوحدة الموضوعية وليس العضوية.

إن عالم الاجتماعيات إذا أدرك أن القرآن قائم علـى هـذه الوحـدة أدرك كيف يتعامل معه، فهو جزء من منهجيته، فالقرآن الكريم معطاء لكـل مـن يقصده، ولكن ليس بالضرورة أن يعطيه كل ما يريد.

المحور الثالث ـ الجمع بين القراءتين:

وقد تحدثنا عن هذا العنصر بما فيه الكفاية في الفصل السابق.

المحور الرابع ـ القراءة المفاهيمية:

انظر الى مفـردات القـرآن فـالراغب الأصفـهاني[1] تجـده في (مفـردات القرآن) يستنبط منها مصطلحاً ربما كان كافياً في عصـره. فـالقرآن يقـدم شبكة من المفاهيم فإذا قدم (العدل) مثلا قدم له مفهوماً كاملاً، ويحوله من مجرد كلمة الى مفهوم واسع، فاللفظة قد يكون لها معنى ثـابت[2]، فيقـوم بتفريغها وشحنها من جديد؛ لأنه يريد أن يستوعب كل حياة البشـر بكـل ثقافاتهم وأنساقهم الحضارية، فلو أنه صيغ لعصر معين لانتهى وأصبـح تراثاً.

---

(١) الراغب الأصفهاني له كتاب مشهور في تفسير مفردات القرآن الكريم توفي عـام ٥٠٢ هـ.

(٢) للمفردات اللغوية دلالات مركزية ولكن حـين تنظم هـذه المفـردات وتتلاحـم الوشائج بينها وتقوم العلاقات المختلفة نجـد أن المفـردات قـد أخـذت ظـلالا وكونـت معاني هامشية أخرى وشكلت مفهوماً كاملاً.

فلابد أن ندرك أن لغته مفاهيمية، وعندما نريد مفهوم كلمة بعينها نأخذ كل اشتقاقاتها، وكيف استعملها هنا، وكيف استعملها هناك، التعامل مع القرآن في عصر النزول كان ينزل من الكلي الى الجزئي، تحدث قضايا والقرآن ينزل ليحلها. تحدث قصة زينب فينزل القرآن فيحلها[1] تحدث حادثة الإفك فينزل القرآن ليحلها[2] الآن القرآن بين ايدينا، فإن واجبنا أن نعرج بالجزئي الى الكلي، نأخذ مشاكلنا ثم نأتي القرآن فنقول له عندنا المشكلة الفلانية، وهناك في عصر الرسالة كان الامر بالعكس، فأنت الآن عليك أن تكيف مشاكلك وتفهمها فهما جيدا فانك بلا شك ستجد الحل في القرآن.

فإذا أخذنا بخصائص التحليل الدقيقة فإن علينا أن نأخذ مشاكل هذا المجتمع بعد التحليل والتفكيك والتركيب وفق أحسن المناهج، ثم نذهب الى القرآن لنطلب منه الحل، فالحل موجود حتماً، ولكن كيفية الوصول اليه تحتاج الى منهج، فعندما تستنطق آية واحدة من القرآن حلا لمشكلتك، فهذا تعامل غير منهجي مع القرآن، وإنما تستنطق القرآن كقرآن؛ لانك تذهب بجزئيتك الى كلي القرآن.

---

(١) قصة زينب بنت جحش احدى زوجات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان قد تزوجها زيد بن حارثة، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد رباه حتى سمي بزيد بن محمد، فلما طلقها زيد امر الله رسوله أن يتزوجها حتى يؤكد انتفاء نظام التبني السالف في منع زواج زوجة المتبنى.

(٢) حادثة الإفك حادثة مشهورة نزلت آيات فيها بسورة النور.

مشكلة أسباب النزول

لم يكن للعلماء الأقدمين عناية كبيرة بهذا الجانب، وإنما هي قضية تساعد فقط التفسير، وتجد عند الاصوليين في ذلك: (أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)[1]. فجبريل عندما أعاد مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم القرآن لم يعد معه اسباب النزول، وأنا أعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهم أن القرآن خطاب عالمي، ولكي ننفي أي شبهة في ذلك نقطع الصلة بين أسباب النزول، وذلك ملاحظ في ترتيب القرآن الذي تم بصورة توقيفية، فالآيات التي نزلت في أول الامر، تجدها في موضع آخر كجزء من سورة بعد أن تم ترتيب القرآن.

علوم القرآن الموروثة

كان هناك مؤشران في بيئة عصر التدوين ففي سنة ١٤٣ هـ كما يقول الذهبي بدأ التدوين الرسمي للعلوم الاسلامية كالتفسير والحديث وغيرها حتى يتكامل في القرن الثالث (ومما دون من العلوم تلك العلوم التي سميت بعلوم القرآن كالتفسير والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه وأسباب النزول، وغيرها، وهي تكونت في مؤشرين:

١ ـ اللغة وقد تقدم الحديث عنها.

٢ ـ الرواية والمأثور.

---

(١) (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) قاعدة أصولية تعني أن عموم لفظ الآية أو الحديث يندرج تحته كل عمل مشابه للعمل المذكور المعين في الآية أو الحديث ولا يقتصر الامر على من قيل فيه الحديث أو نزلت فيه الآية.

الرواية

إذا سألت أيهما أهم: المتواتر أم الآحاد. فالجواب هو التواتر؛ لأنه ما رواه جمع غفير يستحيل تواطؤهم على الكذب، أما الآحاد فهو ما رواه العدل الضابط، والمعلومة الواردة في اطار الحديث ما تأثير أن يرويها واحد أو اكثر؟ فالمعلومة لا تتأثر بطريق النقل فالنقل شيء والمعلومة شيء آخر.

ولا شك أن القرآن بحمد الله تناقلته الكافة عن الكافة وليس فيه شيء، ولكن تلك العلوم بنيت بالشكل، نجد مثلا في مسند أحمد حوالي خمسة أحاديث تتحدث عن المعوذتين هل هي من القرآن؟ وأضاف احدهم الفاتحة، وآخر أضاف الاخلاص، وأضافت الميمونية[1] سورة يوسف. وللقاضي الباقلاني[2] (الانتصار في تواتر نقل القرآن) قال: إن ما حصل أنهم وجدوا مصحف ابن مسعود[3] ليس فيه المعوذتين.

وجاء هذا المنهج كذلك لأنه منهج رواية. ورغم كل شيء فان هذه العلوم قد خدمت القرآن وعلومه خدمة عظيمة. لكن هل يغني عني أن أقول هذا رواه واحد أو جمع وغير ذلك، فهذا كان لمواجهة تحديات كانت قائمة.

---

(١) الميمونية فرقة من فرق الخوارج.

(٢) الباقلاني هو القاضي أبو بكر بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم الباقلاني نشأ بالبصرة وأخذ من علمائها، وكان أحد تلاميذ مجاهد، وعنه اخذ علم الكلام توفي يوم السبت لست بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ.

(٣) عبد الله بن مسعود صحابي جليل من رواة الحديث وصاحب قراءة متواترة مشهورة توفي سنة٣٢ هـ .

إن قضية التفسير المأثور[1] كتفسير الطبري[2] وابــن كثــير[3] وغيرهمــا، والتفسير العقلي[4] كتفسير الرازي، والاشاري[5] كتفسير محي الديــن بـن عربي والبلاغي كتفســير الزمخشــري[6]، يــأخذ عــالم الاجتمــاعيات منــها جميعا، ويجعلها مرجعه الاخير، لأن هناك عنصرين أساسيين هما:

---

(١) التفسير بالمأثور هو التفسير الذي يعتمد على صحيـح المنقـول، وهــذا المسـلك يتوخى الآثار الواردة في معنى الآية، فيذكرها ولا يجتهد في بيان معنى من غــير أصـل ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته ما لم يـرد فيـه نقـل صحيـح (انظـر: مباحث في علوم القرآن ص ٣٥٨).

(٢) الطبري هو محمد بن جرير بن يزيد من أهل طبرستان من أكـابر العلمـاء ولـد سنة ٢٢٤ وتوفي سنة ٣١٠ وهو صاحب جامع البيان الشهير في التفسير.

(٣) ابن كثير هو اسماعيل بن عمر ابن كثير أبو الفداء الدمشــقي الشــافعي مفسـر ومحدث حافظ كان قدوة العلماء والحفاظ ولد عام ٧٠١ وتوفي ٧٧٤.

(٤) يقع تفســير الـرازي في ثمانيــة مجلـدات كبـار، واهتـم فيـه الـرازي بـالعلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والفلسفية ومبــاحث الالهيـات علـى نمـط الاسـتدلالات الفلسفية العقلية.

(٥) التفسير الاشاري هو تفسير صوفي يذهب الى أن الآية لها ظاهر وبـاطن ويعتـد بالباطن اكثر، ويقوم على أن وراء المعاني وخلف الكلام كلاماً آخر، وهــذا التفســير إذا أوغل في الاشارات الخفية صار ضرباً من التجـهيل، ولكنـه إذا كـان اسـتنباطا حسـنا يوافق مقتضى ظاهر العربية فانه يكون مقبولاً.

(٦) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد أبو القاسم الخوارزمي الزمخشري مـن كبار المعتزلة، مفسر محدث، متكلم، نحوي، مشارك في عدد من العلوم. ولد في زمخشـر عام ٤٦٧ هــ وتوفي عام ٥٣٨ هـ من تصنيفاته (الكشاف) في التفســير و(المفصــل) في النحو و (اساس البلاغة) في اللغة.

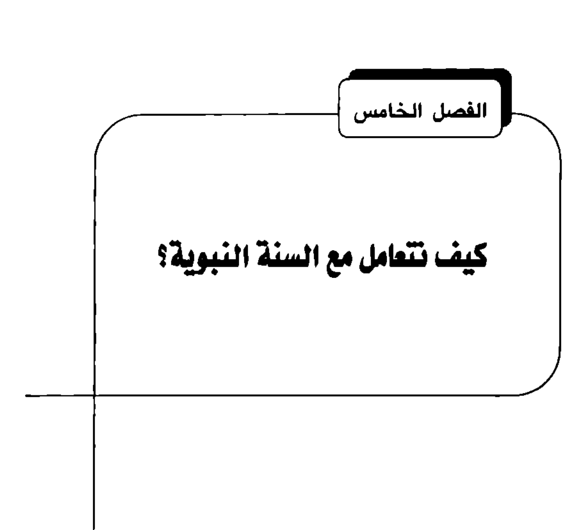
١ ـ التفسير التحليلي الذي يعتمد على قراءة القرآن كله؛ وجمع كل ما له علاقة بالموضوع، ثم الجمع والتحليل بعد ذلك.

٢ ـ التفسير الموضوعي وهو مع التحليلي لا يمكن الاستغناء عنهما في العلوم الاجتماعية.

النقطة الأخيرة

يستلزم عندما تكون هناك مشكلة وتريد من القرآن أن يجد لها حلاً، وأنت عالم التنظير، فعليك أولا أن تعرف كيف تصوغ السؤال.





الفصل الخامس

كيف نتعامل مع السنة النبوية؟

تعريف السنة

ان البحث عن السنة النبوية المطهرة يتم بنفس الحيثية التي بحثنا من خلالها القرآن الكريم، ألا وهي حيثية كونها مصدراً للعلوم أو المعارف الاجتماعية.

ويمكن ان نقول ان تعريف السنة لغة واصطلاحاً سواء باصطلاح الفقهاء او اصطلاح الاصوليين على اختلافهم[1]. لا نود الوقوف عنده طويلا لان شيخنا عبد الغني قد تناول هذا باسهاب شديد عند اللغويين وعند الاصوليين وعند الفقهاء، وتناول جميع القضايا المتعلقة بالتعريف في كتابه القيم (حجية السنة).

---

(١) السنة لغة السيرة والطريقة حسنة كانت أو قبيحة قال رسول الله عليه الصلاة والسلام (من سن سنة حسنة...الخ) وقال خالد بن عتبة الهمزي:

فلا تجز عن سيرة انت سرتها   فاول راضي سنة من يسيرها

وقد استعملت في القرآن بمعنى الطريقة. قال الراغب الاصفهاني سنة الله طريقة حكمته نحو ﴿سنة الله التي خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾. والسنة عند الفقهاء ترادف المندوب والمستحب والتطوع والنافلة والمرغب فيه، وتطلق عند الفقهاء بصورة عامة على ما يقابل البدعة كقولهم فلان من اهل السنة و(فلان على السنة). اذا عمل على وفق ما عمل عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وليس هذا المعنى هو المقصود هاهنا وانما المقصود في هذه المحاضرة ـ معنى السنة عند الاصوليين وهي ما صدر عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم غير القرآن ـ من فعل أو قول أو تقرير (انظر حجية السنة للدكتور عبد الغني عبد الغني عبد الخالق).

ويمكن الرجوع اليه في كل ما يتعلق بتعريف السنة وبيان حقيقتها في اللغة وفي مصطلحات الاصوليين ومصطلحات الفقهاء ايضاً.

اما المعالم المتعلقة بالكتاب والسنة وطبيعة العلاقة بينهما من منظور علماء الاجتماعيات، فالدكتورة منى ابو الفضل، قد وفقت في توضيح هذه العلاقة في كتيبها. اذا كان هذا الامر قد اتضح فنستطيع ان نذهب الى فقرة اخرى من فقرات هذا الموضوع:

اولاً: لغة السنة النبوية المطهرة

السنة كالقرآن الكريم من حيث حاجتنا الى استحضار تلك المعالم الاساسية لفهمها، والتي ذكرناها سابقاً فيما يتعلق بالقرآن الكريم. فالسنة النبوية المطهرة واردة باللغة العربية، وكل ما قلناه فيما يتعلق بكون القرآن الكريم وارداً باللغة العربية، لكنه معبر عن كلام الله جل شأنه، وهو صفة من صفات ذاته سبحانه وتعالى. كذلك السنة واردة بكلام العرب.

تميّز لغة السنة النبوية المطهرة

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو افصح من نطق بالضاد بيد انه من قريش كما قال عن نفسه صلى الله عليه وآله وسلم «انا افصح من نطق بالضاد بيد اني من قريش». وبالتالي ففهم لغة السنة وتراكيبها ومتنها واسلوبها جاء على خصائص العرب ومألوفها، وما درجت عليه في كلامها. ولكن فصاحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العليا المتميزة جعلته عليه الصلاة والسلام يؤتى جوامع الكلم[1]، فيقول في كلمات قلائل

(١) جوامع الكلم هي الكلم الجوامع من اضافة الصفة للموصوف بمعنى الالفاظ القليلة التي جمعت معان كثيرة.

ما لا يقوله سواه في قصيدة أو خطبة أو كلمة أو سواها.

وبذلك نجد ان جمهرة خطبه عليه الصلاة والسلام والتي جمعها بعض الباحثين، وجاءت متناثرة في كتب الحديث، نجد اطولها، مثلاً خطبة حجة الوداع وهي لا تتجاوز صفحة ونصفاً، اقل من صفحتين بأي حال.

ولديه خطب عليه الصلاة والسلام قد لا تتجاوز نصف صفحة أو بضعة اسطر. لكنه صلى الله عليه وآله وسلم اؤتي جوامع الكلم، وهي منة من الله جل شأنه، لتتكامل هذه السنة وتتعاضد مع القرآن في لغتها.

اجناس الرواة

عربية السنة لابد ان تلحظ عندما نحاول التعامل مع السنة أو بيان مناهج او منهجية التعامل مع السنة النبوية المطهرة. وهنا في الحقيقة اود ان اشير الى شيء يقال في النفس، أو قد يكون هو مجرد خاطر، أو تساؤل، لكن بين طلبة العلم يحدث ان يثار مثل هذه الامور، من المؤسف حقيقة ان نقول ان العرب انصرفوا عن خدمة السنة في صدر الاسلام. ولم يولوها العناية التي تستحقها، ولم يعطوها ما تستحق.

فقد كان ائمة السنة وعلماؤها وحفاظها عامتهم من الاعاجم، فالبخاري من بخارى[١]، ومسلم من نيسابور[٢]، والنسائي من نسأ[٣]، وابن ماجة[٤]

---

(١) البخاري سبق تعريفه.

(٢) مسلم بن الحجاج سبق تعريفه.

(٣) النسائي هو عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائي ولد بنسا بنواحي بلخ سنة ٢١٥ هـ، شافعي من مشاهير المحدثين له كتاب (السنن الكبرى) المشهور ويسمى هذا الكتاب (المجتبى) وسنن النسائي وتوفى سنة ٣٠٣ هـ.

(٤) ابن ماجة ابو عبد الله محمد ابن يزيد بن ماجة القزويني ولد سنة ٢٠٩ هـ

من كذا. فلا نجد من العرب إلاّ احمد بن حنبل الشيباني، ويقال ان اصله فارسي كذلك.

قالوا في تفسير هذه الظاهرة، وهي ظاهرة تستحق الدراسة، قالوا ان العرب اشتغلوا بالسياسة والقيادة. وتركوا العلم للموالي. قد يكون هذا تفسيراً وقد يكون سبباً وقد يكون غير ذلك، لكنه قد اثر كثيراً.

نقل السنة بالمعنى

من يرجع الى كتب الحديث وخاصة شروح الحديث، وبعض التراتيب والالفاظ، ويقوم بعمليات الدرس والتحليل والتقليب، سوف يدرك اهمية هذه المشكلة أو هذه القضية، خاصة ان عامة الاحاديث قد نقلت بالمعنى. ومن المعروف ان العلماء منذ البداية اذنوا وسمحوا ان يجري تناقل الاحاديث بالمعنى، ولم يكن هناك اصرار على اللفظ، بل لم يكن ضبط اللفظ ممكناً بالشكل الدقيق في تلك المرحلة.

ولذلك اختلف الناس حتى في ابسط الامور التي يشاهدونها يومياً عدة مرات، مثل كم عدد الفاظ الاذان، التكبيرات اربع، و في الشهادتين.

ثم نختلف ايضاً في الاذان نحو (حي على الصلاة) عند السنة (حي على خير العمل) عند الشيعة، ومرة واحدة عند بعض المذاهب، ومرتين عند مذاهب اخرى، والاقامة نصف الاذان عند بعض المذاهب، وكالاذان عند مذاهب اخرى، مع ان هذا شيء يسمع يومياً خمس مرات، وقد صلى المئات خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن ولامر لم يكن الناس يحرصون على تناقل هذه السنن بشكل دقيق وشكل منضبط، فكان ما كان.

(*) صنف في السنن والتاريخ والتفسير، توفي بقزوين سنة ٢٣٧.

قضيـة اللغـة

فاذا اضفنا الى هذا ان ائمة الحديث معظمهم كانوا من هؤلاء الموالي علـى جلالة اقدارهم واهمية ما قدموا، وان الاسلام قد عربهم، وعـرب لغاتـهم، ولكن من المعروف الآن بالنسبة لما نعرفه من قضية تعلم اللغـات دائمـا ان هناك الذي تعتبر اللغة لغة امه وتعلمها على شكل معين، ومن تعلمها علــى كبر هذا شكل آخر، واقتران الفكر باللغة أو بالتذوق أو سوى ذلك.

هذه اشكالية نشير اليها ونحن نتكلم عن اللغة العربية كمحدد أو كمعلـم من معالم الفهم عندما نعالج هذا، لذلك لابد ان اقف طويلا عند هـذا، اذ ان هناك نماذج كثيرة أسيء فهمها وجنى شراح الحديث، بل وجنــى الفقـهاء ايضاً على ذلك الفهم الذي لم يكن فهماً مبنيـاً علـى طبيعـة اللغـة وقـراءة نظمها، فهذا فهم فيه الكثير من المشكلات، وقد اثار هذه المشكلة ابن السـيد البطليوسي صاحب كتاب (التنبيه)، والكتيب الصغير الذي كتبتـه عـن ادب الاختلاف.

فقضية اللغة تعتبر سبباً اساسياً من اسباب اختلاف العلمـاء وعلاقتـها بهذا الامر كبيرة. من هنا كان علينا في مسألة التعامل مع السنة ان نعـرف السنة، وعلينا ان نعرف لغة قريش، وعلينا ان نعرف فصاحـة رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلينا ان ندمن قراءة احاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكي نتشرب الاسلوب ونعرف كيـف كـان رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعبر عما يريد،وذلك عون كبـير للبـاحث في هـذا المجال عندما يأتي لدراسة الحديث ومعرفة دلالاته.

ثانياً: الوحدة البنائية

ان السنة النبوية تتمتع بوحدة بنائية داخلها، ووحدة بنائية مع القــرآن الكريم. ولا يمكن ان تجد الرسول عليه الصلاة والسلام وهــو رســول الله ونبيه وصفوتــه مــن خلقــه، لا يمكـن ان تجـد فيــه اضطرابـاً واختلافـاً، وتناقضاً وتعارضاً، هذا امر يجب ان ندرك بانه غير موجود.

ان التغيير باختلاف البيئات والاشياء والقضايا يكون مــع عـدم توافـر العصمة، ولكن التغير والاختلاف مع توافر العصمة صعب مستحيل، فـاذا كان الله جل شأنه قد خاطب نبينا الكريم صلى الله عليه وآله وسـلم وقـال له عن رسل سبقوه: ﴿اولئك الذين هداهم الله فبـهداهم اقتـده﴾[1] وقولـه: ﴿اولئك الذين آتيناهم الحكم والنبوة﴾[2]. ثم يـامره بـالاقتداء بـهم. لـو ان هناك تغيراً واضطرابــاً، لا يمكـن ان يكـون هــذا الانســان اسـوة ومثـالاً ونموذجاً للبشرية ككل، في هــذه الحالـة يجـب ان نـدرك ان هنـاك وحـدة بنائية.

منهج ابن حنبل في الاستشهاد بالحديث

احمد بن حنبل احصيت له في بعض المسائل في القضية الواحـدة ثمانيـة وعشرين قولاً، ولدى الحنابلة كتاب مهم يمكن الاطلاع عليه، (الانصـاف في مواطن الخلاف) للشيخ سليمان المرداوي. ففي الانصاف يسـجل روايـات

---

(١) سورة الانعام، الآية ٩٠.

(٢) سورة الانعام، الآية ٨٩.

متعددة عن الامام احمد، في هذه الروايات يقول الامام احمد مثلاً في القضية الواحدة يأتيه حديث فيأخذ به، ثم يأتيه حديث آخر فيقول بمقتضاه، وثالث فيقول بمقتضاه، ورابع فيقول بمقتضاه، لماذا؟ لان منهجيته هي منهجية الاخذ بالرواية، مادام السند قد صح.

فهو يتحرج ان لا يأخذ بالحديث، فيأخذ بالحديث ويترك لك مسؤولية التنفيذ والاختيار، حتى لو كان هناك تناقض مع القول الاول، فهو يريد ان يبرئ ذمته عند الله عز شأنه. قيل له ما مكانك انت بعد ما جاءتك هذه الثمانية والعشرون تعيد النظم وتدرسها مع بعضها وتخرج براي.

قال انا اتحرج لاني اخشى الله جل شأنه ان ارفض حديثاً يكون صحيحاً او احمله على حديث آخر ويكون ليس من حقي ان افعل هذا.

هذه قضية ورع من ناحية، وقضية بناء منهجية من ناحية اخرى. لذلك ورد في المسند كثير من القضايا التي لم يكن لها ان تورد، ولم يكن لها ان تنسب الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واثبت العلماء كثيراً من الاحاديث الموضوعة في هذا المسند، وكثير من الاحاديث الضعيفة ونحوها.

قضية عدم تناقض السنة واضطرابها

النظر الى السنة يجب ان يكون على انها وحدة صادرة عن وحي وشخص واحد هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أي ينبغي التعامل معها كوحدة بنائية وان لا نقرأ معناها مجزأة كما نفعل اليوم. نحن نضرب السنة بعضها ببعض، يدخل المسجد شخص يروي من احاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كذا افعلوا وكذا...الخ، ويأتي آخر يرد عليه مستخدماً حديثاً آخر، هذا لا يجوز، هذا ضرب للسنة بعضها ببعض،

وضرب للقرآن بعضه ببعض، ولو ان الناس وعوا ان القرآن يتمتع بوحدة بنائية، وان السنة كذلك تتمتع بوحدة بنائية، وان العلاقة بينهما، علاقة عضوية، وان الكتاب يصادق على السنة، ينبغي ان ننظر الى هذه الوحدة ونستحضرها باستمرار، لما وقعنا في كثير مما نقع فيه الآن. ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان حينما يريد ان يستدرك بنفسه، «كنت قد نهيتكم عن لحوم الاضاحي لاجل الدافة[١] ألا فكلوا وادخروا»[٢]، الى آخر ذلك. فليس في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يعطي كل هذا الذي نراه، في عالمنا اليوم توفر الطباعة، والحاسوب، وكل الوسائل التي يمكن ان تخلصنا من هذه الفوضى التي نتعامل بها مع سنة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثالثاً: الجمع بين القراءتين

بنفس الصورة التي قلناها في القرآن الكريم ان الجمع بين القراءتين قراءة الكون وقراءة السنة لابد منهما. فحينما يروي لنا شيء من السنة يخالف سنن الكون فلابد من ان نتوقف، ولذلك سآتي الى نقطة اخرى وهي:

---

(١) الدافة هم قوم فقراء كانوا قد نزلوا المدينة في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ثم ارتحلوا، وكانوا يحملون الدفوف ولاجل ذلك سموا بالدافة.

(٢) رواه مسلم في كتاب الاضاحي باب بيان (ما كان من النهي عن اكل لحوم الاضاحي بعد ثلاث في اول الاسلام) وروى البخارى ايضاً في صحيحه عن الاسلمة بن الاكوع في كتاب الاضاحي باب (ما يؤكل من لحوم الاضاحي ويتزود منه) قال (كلو واطعموا وادخروا فان ذلك العام اي العام الذي نهى عن الادّخار كان بالناس جهد فاردت أن تعينوا فيه).

مقاييس نقد متون الحديث

عندما يجيء واحد يروي حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يناقض سنن الكون فلا يمكن ان نقبله، لماذا؟ لان هناك جمعاً بين القراءتين. نحن نقرأ السنة ونفهمها بالكون ونفهم الكون ايضاً بالسنة النبوية المطهرة. فعندما يأتي هؤلاء الدجالون القصاصون الذين ملأوا كتب المواعظ اخباراً لا علاقة لها بالسنة النبوية المطهرة، يكون هذا نوعاً من الانتقاض. فاذن الجمع بين القراءتين ايضاً لابد ان يتم مع السنة. وعلينا ان ننتبه لهذه السنن التي تروى علينا صباح مساء وفي بعضها كثير مما يتناقض مع القراءة الاخرى، أو يثير من المشكلات ما يثير!

رابعاً: القراءة المفاهيمية

ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اوتي جوامع الكلم، وهو افصح من نطق بالضاد وكلامه مليء بالمعاني، وتلك البساطة التي يتعامل بها الناس مع كثير من السنن والاحاديث امر يحتاج الى اعادة نظر. فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يتحدث الى اهل عصره وحدهم، بل كان يتحدث الى البشرية عامة حتى يوم الدين، يوضح لهم هذا القرآن ويبين لهم قيمه ومعانيه. فاذا اردنا ان ننظر الى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجدناها الفاظاً عادية جارية على مجرى خطاب تلك البيئة. اذا قلنا ان الرسالة انتهت عند الصدر الاول والآخرون مهملون فان الله ما كان ليفعل ذلك، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رسول الله الى العالمين كافة، ورسالته دائمة خالدة باقية الى يوم الدين.

فقراءتنا لسنته عليه الصلاة والسلام ينبغي ان تأخذ هذا البعد، وان نعرف ان الفاظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محملة بالمعاني وبالمفاهيم في سائر الدوائر التي هي خارج دائرة التصرف والقول البشري.

اسباب ورود الحديث

كذلك هنالك اسباب ورود للحديث الشريف، اذا كان هناك اسباب نزول للقرآن الكريم، فبالنسبة للحديث الشريف هناك اسباب ورود، لكن اسباب الورود هذه لا تغير عموم احاديث الرسول ولا عموم لغتها وانما القيد على احاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو القرآن الكريم. وليس اسباب ورود الحديث ؛ لأن القرآن الكريم والسنة يتكاملان تكاملاً متيناً.

وفي دائرة هذا التكامل تنقطع الصلة بين الحديث وبين اسباب وروده، الا اذا كان هناك ما يقتضي ان يكون فيه خصوصية له عليه الصلاة والسلام او خصوصية لاحد من اصحابه أو امر مختص بواقعة معينة لا يتجاوزها، وهذه امور لابد من فهمها ولابد من ادراكها ونحن نتعامل مع السنة.

منهجية التعامل مع السنة

كذلك لابد من قراءة السنة بمنهجية تتجاوز المنهجية الحالية في قراءة السنة، والاعتماد على صحة الرواية يزيد الفوضى التي نحن فيها الآن ـ الآن والحمد لله وقبل الآن ـ لو درسنا اسباب افتراق المسلمين الى فرق واختلافهم على كتاب ربهم وسنة نبيهم فمعظم هذا ناجم عن ان هذا

حديث قد صح عندي ولم يصح عندك وهذا حديث صح عندك ولم يصح عندي.

اقول انا بمقتضى ما صح عندي، وانت تقول بمقتضى ما صح عندك، وترفض ما قاله الآخرون، الآن نحن لا نحتاج الى هذا كثيراً، كتب السنة الآن متوافرة وما طبع منها اكثر مما بقي مخطوطاً وهي في متناول الايدي.

وهناك الوسائل التي اعطاها ربنا سبحانه وتعالى لاهل هذا العصر، مثل الحاسوب وسواه والتي نستطيع ان نجمع السنن ونجمع الرواة ونقوم بعمليات غربلة ودراسات عديدة تساعدنا كثيراً على تطبيق فكر المنهج لا فكر التجزئة على سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

كذلك تعاملنا مع السنة في هذه المرحلة، لابد ان يأخذ تعامل العروج من الجزئي الى الكلي. فالسنة امر كلي وجاهز بين ايدينا بموسوعاتها، فاذا حاولنا ان نعيد قراءتها على اساس تنزيل الكلي على الجزئي فان هذا الاضطراب والاختلاف الذي نراه بين المسلمين سيتزايد وينمو ويكثر، ولكن من المفروض الآن ان نعرف، ان السنة قد اكتملت، وان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد انتقل الى الرفيق الاعلى وترك لنا هذه السنة المحفوظة بحفظ الله. لذلك حينما تكون لدينا مشكلة، وحينما تكون لدينا قضية لا نذهب فنلتقط اقرب حديث نجده بين ايدينا، ونقول هذا الذي يتعلق بهذا الموضوع، وانما نعني بتكييف الواقع ودراسة جوانبه كلها. ثم نجمع دائرة ما في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما له علاقة بها. ونقوم بعملية ترتيبه وربطه بآيات الكتاب الكريم التي تكون قد وردت في الموضوع. ثم نقوم بعملية التنظير أو عملية الاجتهاد في هذا.

دور العلوم الاجتماعية والانسانية في التعامل مع السنة

كذلك لابد من ان نرجع في السنة الى نوع من التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي في سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والفهم الصحيح كذلك لابد من الاستعانة بهذا الذي نسميه اليوم (بالعلوم الاجتماعية والانسانية) ففيها مؤشرات كثيرة تعيننا على تفسير مراد رسول الله، وعلى تفسير كثير من الظواهر التي كانت في تلك البيئة وعلى دراسة عصر النبي، ومن المؤسف ان هذه الدراسات لاتزال قليلة جداً بل نادرة، وقليل من الباحثين هم الذين ينطلقون الى هذا النوع من الدراسات، ولا اذكر الا دراسة محمد عزت دروزة (عصر النبي وبيئته)، وهذه دراسة مرتبطة بالقرآن الكريم حاول استنباط ما وصل اليه، أو ما استنبطه من خلال آيات القرآن الكريم.

لكن لم تجر دراسات متعمقة لعصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فعصره في مكة مثلا فيه آلاف الاسئلة يمكن ان نثيرها. فيودي ان أجد احداً في التربية يستطيع ان يقول مهلاً لماذا كانت العرب ترسل ابناءها بعد الولادة من الحواضر (مكة والمدينة) مثلاً الى البادية في سن السابعة وتستعيدهم، ماذا كان في البادية آنذاك؟ قد تقول لتعليمهم الخشونة، حسناً فالحواضر فيها الخشونة، ويمكن ان نعلمهم الخشونة داخل البلد، ماذا كان هناك؟ قالوا يعلمونهم الفصاحة لان البوادي كانت افصح من الحواضر، الامر محتاج لدراسة، وهذه تبقى مجرد عبارة عن خواطر حتى تاتي دراسة موثقة في ذلك.

اولا: علوم الحديث رواية

فهي تلك العلوم التي تهتم بالاسناد، اي سلسلة الرواة عن فلان عن فلان، فالراوي ينبغي ان يكون عدلاً تام الضبط متصل[1] السند الى مستواه، فما هي عدالة الراوي؟ وما الذي يجرح[2] الراوي؟

قضايا الجرح والتعديل: صادق، وضاع، كذاب، دساس...الخ. فالعلوم المتعلقة بقضايا السند وقضايا رواة الحديث، هذه علوم تسمى (بعلوم الحديث رواية)، وشروطها كثيرة جداً، ومعروف ان المسلمين قد برزوا في هذا المجال، وفي الحقيقة تعتبر هذه العلوم، من العلوم التي هي من ابتكار هذه الامة، بمعنى ان لم تكن هناك علوم موجودة قبلها، وحتى الآن لم توجد علوم مماثلة في هذا المجال، حوالى نصف مليون انسان الذين يمثلون الصدر الاول من الصحابة حتى القرن الثالث. هؤلاء وضعوهم على طاولات تشريح، وتمت دراسة كل منهم رجلاً كان أو امرأة، حتى من روى حديثاً واحداً وقال العلماء فيه رأياً. ولكن هذه الآراء في هؤلاء الرجال، هل نستطيع ان ننفي عنهما التحيز، ونقطع لها بالموضوعية؟ الجواب لا، من الممكن ان يثق الامام البخاري بشخص، ويقول عدل وضابط لانه يعرفه، ونجد محدثاً آخر مثل مسلم يقول عليه هو لين الحديث مثلا، أو قليل الضبط أو مجروح في عدالته أو كذا، فهذه العلوم فيها اختلافات وينبغي

---

(١) رواه البخاري في كتاب الكسوف.

(٢) يجرح الراوي معناه يشكك في روايته للحديث بالفاظ مخصوصة اصطلح عليها علماء الحديث كأن يقال هو وضاع أو متروك أو ليس ثقة أو غير هذا.

الآن وقد انعم الله علينا بالحاسوب والوسائل، (بدلا من ان يذكر في الرجل الواحد عشرون رأياً)، هذا يقول عدل، وهذا يقول ليس ضابطا، وهذا يقول ضابط، وهذا يقول ليس بعدل، وهذا يقول صادق، وهذا ليس صادقا.

هذا فيما يتعلق بعلم الحديث رواية علم الاسانيد والرجال ودراستها وتصنيفها والتوثيق والتصنيف وسواها، وقد قدم المحدثون لهذا العلم خدمات جليلة. وكتب البخاري تاريخه الكبير وتاريخه الصغير، وابن ابي حاتم الرازي وسواهم، وكتبهم شائعة ومنتشرة في هذا الموضوع، وابن حجر كتب اسد الغابة وكتب الاصابة وغير ذلك، فلم يعد هناك شخص ممن وضع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئا إلاّ وقد اجريت عليه دراسة.

دور النساء في خدمة السنة

ومن الطريف ان الإصابة ترجمت لثلاثمائة راوية، يعني محدثة، انثى من المحدثات، وكثير من المحدثات بلغن ما يسمى برتبة امير المؤمنين في الحديث، وهو الذي يحفظ مائة الف حديث اوما يزيد، وكثيرات أخذن لقب (الشيخة)، هو لقب من القاب المحدثين تكون قد بلغت مستوىً عالياً جداً وبدأ الناس يأخذون عنها.

ولم يكن العلماء يانفون من ان يأخذوا عنهن. يذكر ابن الجوزي وسواه أنهم كانوا يذكرون هذا في مشيختهم، فيقول: وكانت شيختي فلانة اخذت عنها كذا، ودرست عليها كذا...الخ. هذا ذكرته لنعرف مدى تخلفنا عن اسلامنا.

ثانيا: علم الحديث دراية

نأتي ثانياً لعلم الحديث دراية، ألا وهو علوم نقد المتون[1]، ولكن للاسف الشديد هذه العلوم لم تحظ منا بالعناية الكافية. والمحدثون بما فيهم الاوائل او الكبار، كما قلت صرفوا جهوداً جبارة وهائلة في عمليات علم الحديث رواية، وحاولوا ان يدرسوا سائر الرواة ووضعوا قواعد ممتازة جداً. واذا اردنا الآن ان نغير النظر فيها فقد لا نستطيع ان نضيف الكثير في عملية نقد الرجال، ووزنهم في الحفظ والضبط وكذا.

من اصطلاحات المحدثين في الرواية

من مصطلحاتهم الطريفة مثلاً يقولون: فلان ادركته غفلة الصالحين، فيهم طيبة، فاحياناً يمر عليه شخص مريب لكنه يغفل عنه لصلاحه، يقال ان فلاناً ادركته غفلة الصالحين فروى عن فلان، وفلان لا يستحق ان يروى عنه مثلاً.

تجدهم يقولون متروك، اما المتروك وضاع، دساس، وتستطيعون ان تلجأوا الى اي كتاب من كتب المصطلح مثل (المقدمة) لابن الصلاح، و(تدريب الراوي) للسيوطي، و(نخبة الفكر) لابن حجر[2]، و(الباعث

---

(١) نقد المتون هو تمييز اصل الحديث، واخضاعه لعدة شروط.

(٢) ابن حجر العسقلاني هو احمد بن علي بن محمد ابو الفضل الكناني العسقلاني، المصري المولد والمنشا الشهير بابن حجر نسبة الى حجر وهم قوم يسكنون بلاد الجريد في تونس، من كبار الشافعية، محدث فقيه، مؤرخ، تولى الافتاء

الحثيث) لابن كثير، اي كتاب من هذه الكتب نجد فيه الكثير من التفاصيل حول هذا الموضوع.

نقد المتون

لكن الامر الذي اريد الوقوف عنده قليلاً ونحن نتحدث عن مناهج التعامل مع السنة، علم الحديث دراية اي نقد المتون لم يأخذ حقه الكامل مع انهم وضعوا قواعده. لكن لم يكن هناك تشغيل يذكر لهذه القواعد، ولذلك الآن يمكن ان نملأ مكتبة بكتب في الرجال. ولكن حينما نأتي الى الكتب التي في نقد المتون لا نستطيع ان نجد إلاّ عدداً محدوداً جداً ثلاثة او اربعة أو خمسة كتب هي المشهورة ويكون تداولها أو استعمالها نادراً جداً.

وفي الحقيقة وجدت الشيخ مصطفى السباعي في كتابه «السنة النبوية» جمع ستة عشر بنداً اعتبرها البنود الاساسية في مسألة نقد متون الحديث، وذكر ان باحثاً سعودياً نال درجة الدكتوراه في مقاييس نقد متون الحديث، ذكر فيه ثماني قواعد، وأورد انا تقريباً في القواعد الثمانية كل ما أورده السباعي، ولكني افضل ان استخدم ما اورده السباعي باعتباره اكثر تفصيلاً واعود للباحث على معرفة هذه القواعد.

هناك شرطان لكل حديث، والحديث يُقبل اذا توافر فيه

الشرط الاول: صحة السند. والشرط الثاني: ان يجتاز اختبارات نقد المتون. فاذا صح السند واصبح الحديث مفروغاً منه من حيث الرواية،

(*)بدار العدل والخطابة بجامع الازهر وتولى القضاء، زادت تصانيفه عن مائة وخمسين مصنفاً ولد عام ٧٧٣ هـ وتوفي ٨٥٢ هـ

ينتقل الى مقاييس نقد المتون لكي يحلل النص، وهي:

الاولى: ان لا يخالف صريح محكم القرآن أو يخالف محكم السنة، او يخالف معلوماً من الدين بالضرورة. فاذا وجدنا الحديث يخالف محكم القرآن أو يخالف حديثاً اصح منه واشهر منه وكان محكم السنة أو متواترها، أو ان الحديث جاء على خلاف المعلوم من الدين بالضرورة فانه يرفض حتى لو انه صح سنده.

الثانية: ان لا يكون مخالفاً للمشاهدة والحس، يعني اذا جاء الحديث فينبغي ان لا يخالف اموراً مشاهدة واموراً حسية[1] في عصر الرسالة، فيأتي على خلاف المعهود والمعروف، وهو لا علاقة له بغيب أو بيان قرآني، في هذه الحالة يكون الحديث موضع تساؤل.

الثالثة: ان لا يكون مخالفاً لما ثبت من سنن الكون والخلق، ان السنن الكونية، والسنن الطبيعية، سنن الخلق، فاذا جاء الحديث مخالفاً لها أو مغايراً لها، انذاك يتوقف فيه.

الرابعة: ان لا يكون ركيك العبارة، فاقداً للفصاحة[2]. فهناك كثير من

---

(١) يجب ان لا يخالف الحديث المروي العقل والمشاهدة وان لا يكون غير قابل للتأويل اذا جاء كذلك قيل لعبد الرحمن بن زيد حدثنا ابوك عن جدك: ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ان سفينة نوح طافت بالبيت وصلت خلف المقام ركعتين» قال: نعم وواضع هذا الخبر عبد الرحمن بن زيد بن اسلم، وهو مشهور بكذبه وافترائه.

(٢) يجب ان تكون الفاظ الحديث المنسوبة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تناسب افصح العرب والا فان الاسلوب الركيك يشكك في صحة الحديث وهذه

الاحاديث التي يرويها القصاصون والاخباريون والتي تروي قضايا الترغيب والترهيب، ونجدها عند الوعاظ كثيراً من هذه الاحاديث لا يمكن ان تصح لما فيها من ركاكة لفظ ولما فيها من كلام مولد (يعني كلام ولدته الاعاجم بعد عصر الرسالة).

الخامسة: ان لا يكون منافياً لبديهيات العقول[1] او لأي دليل مقطوع به.

السادسة: ان لا يكون مخالفاً للقواعد العامة في الاخلاق، او الحكم المتسقة مع مقاصد القرآن.

السابعة: ان لا يكون مخالفاً للبديهي من الطب[2]، يعني اذا كان الطب يقول شيئاً ثابتاً بالتجربة ويجيء حديث يقول خلافه فهو ممنوع. مثلاً الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ثبت انه استحم لما اصابته الحمى وامرهم ان يأتوا بقرب من ماء من آبار عديدة وتفرغ عليه، ولكن ما هو

القاعدة يسهل ادراكها على المتمرسين بهذا الفن قال: الحافظ ابن حجر العسقلاني «المدار في الركة على ركة المعنى فحيثما وجدت دلت على الوضع وان لم ينضم اليه ركة المعنى».

(١) وضعت بعض الاحاديث التي تنافي البديهيات ولا يقبلها العقل نحو ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الباذنجان شفاء من كل داء» وقوله: «الباذنجان لما اكل له» فمن البديهي لو كان ذلك مقبولا في حكم العقل لما احتيج الى غير الباذنجان في المداواة وهذا نوع من السخف لا تجوز نسبته له صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) وضعت كثير من الاحاديث في الطب النبوي وكانت تخالف المعهود في الطب قديماً وحديثاً، ومثال ذلك ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كل شيء اخرجته الارض فيه داء ودواء الا الارز فانه شفاء لا دواء فيه»، يقول ابن القيم: ان هذا الكلام مما يستقبح نسبته الى آحاد العقلاء فضلا عن الانبياء.

نوع الحمى التي كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مصاباً بها بحيث ينجح الماء البارد في اطفائها؟ لا نعرف.

الآن يسأل الطبيب نقول له ما هي انواع الحمى التي يفيدها الماء البارد؟ لانه هناك انواع من الحمى اذا استحم المحموم بها بالماء البارد فانه يتضرر، فهل نقول لكل محموم هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. مادام عندك حمى اذهب فخذ سبع قرب ماء من آبار مختلفة وصبه على رأسك؟

الثامنة: ان لا يكون داعياً الى رذيلة يتبرأ منها الشرع.

التاسعة: ان لا ياتي موافقاً لعقيدة الراوي الداعي الى مذهبه فيما يتعصب له[1]؛ لاننا نعرف انه كان من اهم اسباب الوضع ان هناك اناساً انتحلوا نحلاً وابتدعوا بدعا، وكونوا مؤسسات أو أحزاباً أو قواعد أو فرقاً، وبدأوا يعززون هذا كله باحاديث يضعونها على لسان رسول صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد كان اهم وسيلة اعلامية في الوسط الاسلامي هي الاحاديث. يقولون انه كان هناك قصاص في اكبر مساجد بغداد جالس للقصص. فيما ارويه بسندي عن احمد بن حنبل واسحاق ابن راهويه كذا وكذا، احمد بن حنبل كان حاضراً هو واسحاق بن راهوية بالمجلس في المسجد، وبعد ان انتهى، قال له اتعرفني؟ قال: لا. قال: انا احمد بن حنبل. واسحاق قال له اتعرفني؟؛ قال له: لا. قال له: انا اسحاق بن راهوية. كيف رويت عني وانت

---

(١) بدأ ظهور الوضع في سنة احدى واربعين للهجرة حين تنازع المسلمون شيعاً واحزاباً وانقسموا سياسياً فكان الانتصار للمذاهب منذ اول الامر اهم الاسباب الداعية الى وضع الاخبار.

لا تعرفني؟ قال: انا والله ما رأيت مثل اليوم يوماً ومن قال لكما ان الله لم يخلق احمد بن حنبل إلاّ انت ولا اسحاق بن راهوية إلاّ انت؟

عاشراً: ان لا يشتمل على سخافات وسفاسف يترفع عنها العقلاء[1]، يعني احياناً هناك كلام يروونه على انه احاديث نجد فيه شيئاً لا يليق بالانسان العادي، اذكر مرة احد خطباء الجمعة في بلد ما ذكر حادثة جبلة بن الايهم مع عمر مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال يا شاهدت هذا قد فعل كذا، فقام اليه رسول الله وضربه (شلوتاً)، رسول الله على خلق عظيم في حياته كلها لا يضرب بيد ولا بغيرها، الآن اخرجته يضرب شلوتاً، هذه امور لابد ان نلحظها بقطع النظر عن السند او الرواية، ولابد ان يخضع الحديث لمثل هذا.

حادي عشر: ان لا يخالف الوقائع التاريخية المتواترة عن عصر النبوة، يجب ان لا يخالف الحديث الوقائع التاريخية الثابتة عن عصر النبوة أو ما يثبت خلال اشياء مجسمة ومشاهدة، وللاسف الشديد هدمت معالم المدينة الآن وتغيرت كثيراً جداً، ولعل المدينة المنورة التي كانت على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اصبحت الآن داخل الحرم.

لو ان هناك مثلا نوعا من التسلسل التاريخي وهناك حفريات وخرائط وادراك لجغرافية المدينة المنورة، فعندما يقول احد الناس مثلا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام قادما من شمال المدينة بعد ما تغدى عند فلان وحدث

---

(١) من العيب والخطورة نسبة حديث لا يفيد إلا معنى سخيفاً لا ينتفع به في امر دين ولا دنيا كقولهم ناسبين الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الديك الابيض حبيبي وحبيب جبريل حبيبي» فهو سخف لا يجوز نسبته اليه صلى الله عليه وآله وسلم.

كذا. اذا كنا عارفين الشمال والجنوب وماذا الـذي يقـع في الجنـوب، وخارطـة المدينة ثم يأتي حديث يشير الى شيء ما يخالف هذه الجغرافيا بالتالي نستطيع ان نناقش هذا الحديث أو ان نـرده لانـه يشـترط فيـه ان لا يخـالف الوقـائع التاريخية المتواترة عن عصر النبوة، أو مـا ثبـت مـن خـلال اشـياء مجسـدة معروفة اصبحت معلومة لا نقاش فيها أو تثبتها معارف اخرى.

ثاني عشر: ان لا يخبر عن الامر العظيم الذي يشهده الكافة بخبر ينفرد به راو واحد، هناك امر مثل (انفلاق القمر) عندما يجيء فيه راو فيقول (فانشـق القمر فرايت فلقة منه عند حجر رسـول الله عليـه الصـلاة والسـلام والفلقـة الاخرى معلقة في السماء)، هل يمكن ان يقبل هذا. لا يمكن ان يقبل لان حدوث امر كهذا بالفعل لا يمكن ان لا يراه إلاّ هذا الشخص أو اثنين أو ثلاثة.

ثالث عشر: ان لا يكون معقولا في صفات الله او رسله وفي اصول العقيـدة، فكثير من الاسرائيليات التي تروى، يعني كل قصص الانبياء تقريباً ادرجوا فيها كثيراً من المخازي والامور المرفوضة. فسـيدنا داود كمـا زعمـوا رأى زوجة هذا القائد الذي كان عنده فارسله للجبهة حتى يموت فـانزل لـه الله ملكين يقولان له ان اخي عنده تسع وتسعون نعجـة (وكـان لـداود تسـع وتسعون امرأة) ولي نعجة واحدة فقال لي اكفلنيها وعزني في الخطاب، فـان طائفة من المفسرين يفسرونها بان داود رأى امرأة هذا واعجبته.

هذه احاديث اكاذيب بـني اسـرائيل لا يمكـن ان نقبلـها لانـها مخالفـة لمعتقداتنا في عصمة الانبياء ونزاهتـهم ومخالفـة لاصـول العقـائد، فكيـف نسمح بان تروى وان يؤخذ بها؟!

رابع عشر: ان لا يكون بـالحديث ثـواب عظيـم علـى الفعـل الصغـير او

المبالغة في الوعيد على الامر الحقير، مثلاً يقول لك (من قال لا اله إلاّ الله، جعل فيه كذا)، ويقول: (ويوم الجمعة اذا اغتسل احدكم وقال كذا انبت الله من قولته تلك أو من تسبيحته تلك شجرة لها سبعون الف فرع في كل فرع سبعون الف كذا)، هذا النوع من المبالغات والاحاديث التي يكثر القصاصون والاخباريون غالبا من ايرادها في مسائل الترغيب والترهيب ينبغي ان نعرف ان العلماء قد استبعدوها.

خامس عشر: ان لا يكون للراوي بواعث خاصة نفسية عقدية او مصالح حزبية.

سادس عشر: ان لا يكون من موروثات الحضارات الغابرة العقائدية او الفلسفية مثلا موروثات بني اسرائيل، وقد دخل تراثنا من هذه الموروثات، فعن ابي هريرة[1] «حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج»[2]، وكان هذا الحديث تقريباً رافعاً للحواجز التي كان كثير من العلماء يترددون في اجتيازها في الرواية عن بني اسرائيل، حتى امتلأت بالمرويات الكتب والمدونات عنهم وعن سواهم وهي امور كثيرة.

هذه هي الشروط التي وضعها الاقدمون، جمعت مما يسمونه بعلم الحديث دراية، نستعرض هذه الامور الستة عشر فاذا وجدنا ان الحديث فيه شيء او عيب من هذه العيوب، أو انه لا يستطيع ان يجتاز هذه المقاييس فلنعلم ان الحديث فيه مشكلة ولا يمكن قبوله.

---

(١) ابو هريرة عبد الله بن صخر صحابي جليل من اكثر الصحابة رواية لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) رواه البخاري كتاب العلم باب اثم من كذب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

تلازم صحة السند والمتن

لقد اجرينا بعض التجارب على بعض الاحاديث، قال العلماء أو بعضهم بصحتها، ووجدنا فيها عيباً من هذه العيوب، وسبحان الله حينما تمت مراجعة السند نفسه، وجد ان في السند مشكلة، يعني اما ان يكون فيه واحد كذاب او وضاع أو دساس أو غافل أو شيء من هذا. هذا نوع من التلازم بين صحة السند وبين هذا، ولكن ما ينبغي ان لا يغيب عن اذهاننا بأي حال من الاحوال ان ما يثبت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، يؤخذ به، واي انسان ينكر هذا الحديث أو يرفضه أو لا يقبله بحال من الاحوال، واذا كان من الاحاديث التي جاءت في مجال التبليغ أو التشريع أو نحوها كما ذكر العلماء. لكن في الوقت نفسه حينما نختلف على قبول راوي من الرواة او نختلف اقول لك هذا الحديث فيه عيب ما، وانت تقول لا ليس فيه هذا العيب، فلنحذر ان يكفر بعضنا بعضاً، أو يبدع بعضنا بعضاً، او يفسق بعضنا بعضنا، نتيجة الاختلاف حول شخص.

والسنة من حيث هي صادرة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يسع مسلماً مؤمناً يؤمن بالله واليوم الآخر ان يرفض منها كلمة واحدة: ﴿ما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم﴾[1].

ولكن من حيث السند والمتن علينا، ان نتدبر وان نحاول ان نصحح وان نراجع يصح عندك ولا يصح عندي تثق بهذا الراوي ولا اثق به. ترى ان

(١) سورة الاحزاب، الآية ٣٦.

هذا الحديث خال من هذا العيب وانا ارى فيه عيباً آخر، ايضاً لا يسع احد منا ان ينسب الامر الى بدعة لان هذه عبارة عن اجتهادين:

انت اجتهدت بهذا الرجل واعتبرته صادقاً، وآخر اجتهد واعتبره غير ثقة، انت اجتهدت مثلا بهذا الحديث واعتبرته خالياً من الضعف آخر اجتهد ووجد ان هذا الحديث يمكن ان يجد فيه عيباً من هذه العيوب التي اتفق العلماء على ان الحديث يرد بها.

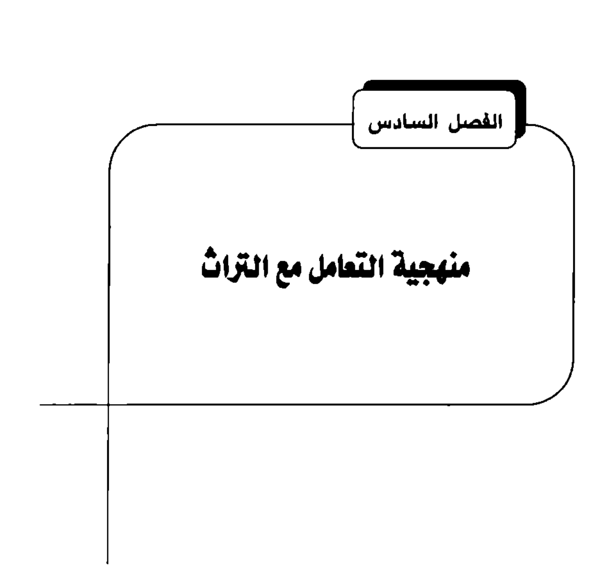
هذه جولة مختصرة وسريعة مع قضية التعامل مع السنة النبوية المطهرة حاولنا فيها ان نبني بعض الخطوات المنهجية من ناحية، وحاولنا ان ننبه الاذهان تنبيهاً الى ان الحديث لابد له ان يجتاز عقبتين، عقبة في السند وعقبة في المتن، عقبة السند معروفة عند العلماء ببحوثها بعلوم الحديث رواية، العقبة الثانية هي متعلقة بمقاييس نقد المتون.

وانا اوصي الباحثين ان يهتموا بمقاييس نقد المتون هذه ويعملوا على تنميتها، لكي تصبح معروفة لاهل العلم وللباحثين، كما اوصي نفسي واوصي غيري بان نعمل ما نستطيع لخدمة سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واعلاء شانها وتنقيتها من كثير مما الحق بها، والوسائل في ذلك كثيرة.

والسنة محفوظة بعصمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبالقرآن، والقرآن محفوظ بالله جل شانه: ﴿انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون﴾[1]، وهي محفوظة بالقرآن ومستمدة حجيتها من القرآن الكريم ومن عصمة رسول الله عليه الصلاة والسلام.

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩.



الفصل السادس

منهجية التعامل مع التراث

مفهوم التراث

التراث مفهوم اختلف الناس اختلافا شديدا في تحديد معناه والمراد به. وسنتجاوز كل هذا الاختلاف فيما يتعلق بالتعريف، لنوضح اننا معاشر المؤمنين بالله جل شأنه، الذين اسلموا وجوههم لله تعالى لنا محترزات هي:

أولا:

نستثنى استثناء كاملا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من ان يندرج تحت هذا المفهوم بأي شكل من الاشكال ما عدا الشكل اللغوي الذي اشار القرآن الكريم اليه، نحو قوله تعالى: **﴿ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾**[1].

وكل الجدل الذي دار ولا يزال يدور حول مفهوم (التراث). وما يندرج تحته، وما يمكن ان نعنى به، وما دار حوله، ومقابلته للحداثة، والمقارنة بين الاصالة والمعاصرة، أو بين القديم والحديث، أو بين التجديد والاصالة، كل هذا سنتجاوزه، فهنالك بحوث عنيت به عناية خاصة، عنيت بتحديد المفهوم والمصطلح وهي كثيرة جدا، وهنالك كتابات كثيرة جدا من اسلاميين وغير اسلاميين، تناولت هذا الموضوع تحت عناوين كثيرة،

(١) سورة غافر الآية: ٣٢.

وعنيت كثيرا بمحاولة تحديده. اما الذي يعنيني من ذلك كله لكي لا ننفق وقتا كثيرا فيه، ان اوكد اننا نستثني الكتاب والسنة من ان يندرجا تحت هذا المفهوم[1]، اللهم إلاّ بمعناه اللغوي، وكل ما نذكره من مناهج للتعامل. وكيف نعرض التراث للنقد؟ واي وسيلة وآلية أو منهج نشير اليه. وذلك يعني ان الكتاب والسنة خارجان عن مفهوم التراث.

ثانيا: تحفظ العلماء المتقدمين

لدينا موقف متحفظ يصادفنا باستمرار، فحينما نأتي إلى موضوع التراث نجد ترددا شديدا، كثيرا ما يوقف بعضنا عن المراجعة فإن كثيرا من علمائنا كانوا يقولون: «إن في هذا الصدر شيئا لو بحت به لخشيت ان يحصل كذا، أو يحدث كذا»، وكيثرا ما تاتي اشارات في ترجمات اعلام كبار، بعضهم من الصحابة وبعضهم من التابعين، ومن اتباع التابعين، من

---

(١) ان مصدر الدين هو نصوص القرآن والحديث، وهذا المصدر بما هو دلالات لغوية على المراد الالهي، فان فهم الدين يحتاج إلى عمل اجتهاد لتعيين المراد من خلال الدلالة، فمن اجتهادات المسلمين منذ عهد الصحابة، والاجتهادات التي جاءت بعدها متتالية نشات افهام دونوها في علومهم وتفاسيرهم وشروحهم، وهي افهام وإن كانت تشترك في الاسس الكلية للدين، إلاّ انها تفترق في كثير من الفروع والتفاصيل، ومن جملتها تكونت المدونة الكبرى التي تسمى بالتراث.

ومما يجب اخراجه من مدلول التراث اجماع المسلمين، وخاصة ذلك الذي وقع عليه الاجماع في عهد الصحابة، وذلك لان هذه الامة لا تجتمع على خطإ، ولذلك اجمع المسلمون على ان الاجماع هو المصدر الثالث للتشريع (انظر: في فقه التدين فهما وتنزيلا: للدكتور عبد المجيد النجار هي ٦٨ ـ ٧٠).

مختلف طبقات علماء الامة نجد اشارات مثل هذه، يقال: في هذا الصدر. في هذا الرأس. في هذا القلب شيء لو بحت به لخشيت ان يحدث كذا وكذا. بعضهم باح بشيء ودفع ثمنا غاليا، ربما يكون ذا مدرسة كبيرة يلتف حوله آلاف الطلبة سرعان ما ينفضون عنه لانه قال قولا يخالف مألوفهم أو يخرج عمّا كانوا قد تعلموه. لن نستطيع ان نجد مراجعات من تراثنا ناقدة بالشكل الذي يتناسب وطاقات علمائنا واسلافنا، وما اعزها من طاقات وما اكبرها! نجد مثل هذه التعابير: ان في القلب شيئاً لو بحت به. ما هذا الذي يتخوف ان يبوح به عالم مثل الغزالي[1]. أو عالم مثل امام الحرمين الجويني. أو عالم مثل الفخر الرازي. وغيرهم ممن نقل عنهم هذه الاقوال. استطيع ان الخص بعض اسباب حالت بين كثير من علمائنا وبين مراجعة تراثنا:

١ ـ قطع الصلة بين الماضي والحاضر:

قليلون جدا هم الذين يستطيعون ان يدركوا العلاقة الوثيقة بين تردي اوضاع الحاضر وثقافة وافكار ماض متحجر.

فلو سألنا علماءنا الذين عاصروا غزو الصليبيين لبلاد المسلمين، أو الذين عاصروا غزو التتار لبلاد المسلمين، عن هذه العلاقة بين الماضي وبين

---

(١) الغزالي هو محمد بن محمد ابو حامد الغزالي، نسبته إلى الغزالي (بالتشديد)، وكان ابوه غزالا، فقيه شافعي، اصولي، متكلم، متصوف، ولد عام ٤٥٠، وتوفي عام ٥٠٥، من مصنفاته (البسيط) و (الوسيط) و (الوجيز) و (تهافت الفلاسفة) و (احياء علوم الدين).

الحاضر الذي بلغته الامة سوف تجد قليلا جدا من الاشارات التي تشتمل على تحليل دقيق.

٢ ـ عدم وجود التحليل الدقيق:

كثيرا ما تحال هذه الامور واسباب التردي والانهزام إلى عموميات مثل الانحراف عن الكتاب والسنة، والانحراف عن سيرة الصدر الاول وهكذا. هذا صحيح. ولكن صحيح على الجملة في عمومياتها. وفرق كبير بين ان نحلل الامر إلى شيء عام ونترك الناس يحملون العام على ما يريدون. وبين ان نضع ايديهم على تفاصيل نرجعها إلى ذلك العام.

ان ابن السبكي له كتاب لطيف جدا حتى في عنوانه اسمه (معيد النعم ومبيد النقم) وابن السبكي متأخر من علماء اواخر القرن السابع واوائل القرن الثامن الهجري. يتوقع مثلي حينما يقدم على قراءة مثل هذا الكتاب ان يجد فيه نوعاً من التحليل لقضية البلاء وكيف تكون آدابها في فنونها وادابها. ادب عريض وكثير. ولكن يأتي إلى عملية تحليل تعطينا نوعا من التصور لكيفية بناء الحضارات ونهوضها. وكيفية تراجعها وانحسارها. مع ان القرآن الكريم يمكن ان يبنى منه علم يمكن ان نسميه علم الحضارة. كيف تبدأ؟ وكيف تنشأ؟ وكيف تولد؟ وكيف تقوم وتتدرج؟ وكيف تبدأ بالانحدار؟ ومن اين يبدأ خط الانحدار؟ اننا لو عكفنا على دراسة القرآن الكريم مع شيء من الوعي في قضايا الحضارات لاستطعنا ان نخرج بعلم عن هذا. لكن كانت الامور تحال إلى امور عمومية وربما إلى امور غيبية.

٣ ـ سيادة الفكر الجبري:

حين ساد الفكر الجبري واساء المسلمون فهم القضاء والقدر بدأت تحال عدة امور إلى القدر: الله سبحانه وتعالى هو المسؤول. نحن لم نفعل شيئا. لكن الله جل شانه هو الذي سلط علينا الاستعمار وافقرنا. لكن لم تحصل مراجعة لما كسبت ايدينا. والله تعالى قد حدد فقال: ﴿ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة من نفسك﴾. ابحث في نفسك. ابحث في عقلك. ابحث في فكرك. ابحث في تراثك لكي تدرك اين موطن الاصابة؟

٤ ـ ارتباط المراجعة بالإلحاد والانحراف:

بالنسبة لعصرنا وجيلنا هذا اصبحت قضية المراجعة للتراث تقريبا تمتد ببعضنا إلى الالحاد في بعض الاحيان وهذا نوع من الخلط.

٥ ـ ارتباط فكرة المحافظة على التكوين الثقافي بالمحافظة على التراث:

بالنسبة لابناء هذا العصر ارتبطت قضية المحافظة على التراث بالمحافظة على الهوية. هويتنا، شخصيتنا، تاريخنا، تكويننا، تراثنا امر لا ينفصل عنه. ان القرنين الأخيرين كانا فترة صراع بيننا وبين خصوم اشداء، اوروبا اجتاحتنا، وقسمت ديارنا، واساءت الينا، فالتعرض للتراث يعتبر بمثابة تعرض للهوية، وبالتالي نجد اشد المقاومة واشد النصرة. كما ان قيادات حركة الاصلاح خلال القرنين الأخيرين استعملت التراث كاداة تحريضية لتعبئة الامة وتكثيف ثقتها بهويتها، لكي تصمد امام الاجتياح من ناحية، ولكي ترد الاجتياح وتقاومه من ناحية اخرى.

٦ ـ افتراض الماضي خير من الحاضر:

دائما اصبح لدينا تفكير بان الماضي، حتى ماضي والدي، أو حتى ماضي والدتي، أو حتى ماضيك في العشرين سنة والثلاثين سنة، محكوم عليه بالبراءة والافضلية، ومحكوم عليه بانه خير من الحاضر، الماضي صالح والماضي سليم، امسي أحسن من يومي، نزعة اصبحت جزءا من الحواجز والحجب الكثيرة التي لا تسمح بعملية نقد.

بل احيانا نوصل لها ونحمل قوله تعالى جل شأنه: ﴿تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾. نحمله على غير وجهه، ونقول في معناه: دعك من الماضي ما دمت تؤمن بصحته وبسلامته وبوجوب اعادة انتاجه، أو نقول دعونا نتجاهله لان البحث فيه يخشى منه ان يعيدنا اليه، بينما يقول الله تعالى: ﴿ولقد اتوا على القرية التي امطرت مطر السوء افلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا﴾.

مئات الآيات تجدها تشير إلى الدرس الماضي. حاول ان تفهمه، تدرس نقاط القوة فيه ونقاط الضعف، حاول ان تعرف مواطن الاصابة، مواطن القوة، خطوط الاستقامة والانحراف، القرآن الكريم يكاد ان يكون ثلث آياته مكرساً للنظر في هذه الامور، دراسة أحوال من سبق دراسة لا يمكن ان نتجاوزها لان عليها يتأسس حاضرك، ويتأسس مستقبلك.

٧ ـ المحافظة على مكانة العلماء:

من العوامل التي تشكل ضواغط علينا وتحول بيننا وبين مراجعة التراث اننا ورثة تقاليد ذات حساسيات شديدة لاية مراجعات لآراء ومذاهب

تكلمت بها شخصيات كرمت مكانتها التاريخيــة وكرســت مشــروعيتها في العقول والقلوب والنفوس. وذلك لإصابة فكرية قديمــة كــانت تخلــط بــين الرأي وقائله فليس هنالك تمييز بين الرأي من حيث هو رأي وبين قائله فما حذر منه الإمام علي عليه السلام من ان يكون معرفة الحق بالرجال وقعت فيه هذه الامة منذ وقت مبكر ولاتزال تعيشه.

كان لنا شيخ اسمه (أمجد)، وكان آية في الذكاء حينما يكــون في الــدرس ونقرأ عليه ينقد. فتقرأ من كتاب الهداية من فقه الحنفية فيقول: ان الامــام ابو حنيفة ليس له حق ان يقول هذا القول لا يليق به، كان ينبغي ان يقــول كذا. الدليل يقول كذا. فيحاكمه محاكمة دقيقة جدا. فاذا خرجنا من الدرس. قد ياتيه من يقول له: شيخنا الامام ابو حنيفة مذهبه فيه الموضوع الفلاني لا أرى فيه وجاهة.

فيقول: يا شيخنا احذر اياك ان تتطاول علــى هــؤلاء العلمــاء، ايــاك ان تتحدث بشيء.

فيرد: يا شيخي انت كنت قبل ساعة تنقد وتتطاول وتسفَه!

فيقول: لا ينبغي ان تفتح هذا المجال ابدا، لانه اذا فتــح تحــدث مشــاكل كثيرة.

وجهة نظر، فهو يخشى ان تهتز مكانة الامام الاعظــم ابــي حنيفــة ؛ في نفوس الناس. النقد اداة معرفية. وسيلة من وســائل المعرفــة. لا يمكــن ان يستغني نظام معرفي عن نظام النقد على الاطلاق. والسب والهجو والحــط من قيمة الشخص مسألة اخرى مختلفة اختلافا كبيرا. ورأينا مثل القاضي عبد الجبار الهمداني وهو كــان رجــلا شــافعيا، يقلــد الامــام الشــافعي في

الفروع، لكن في الاصول وفي القضايا الاعتقادية له منهجه، فحينما نقل لـــه عن الشافعي قول في مسألة ما قال: والله ان اخطاء الكبار أو اخطاء العظماء على اقدارهم وهذه من اخطاء الامام الكبير.

هو جليل القدر. وهو كبير عندي وعظيم عندي. لكن هذه الغلطـــة ايضــا كبيرة جدا. كان يقلده وهو من اتباعه ومقلديه ولم يخرج عنــه. وكــان ابــو يوسف ومحمد كثيرا ما يردان آراء أبي حنيفة. والآن لو فتحـــت اي كتــاب فقــهي لوجـدت آراء لاصحــاب أبــي حنيفــة تخــالف آراءه. لوجـــدت آراء لاصحاب الشافعي تخالف الشافعي. وآراء لاصحاب احمد تخــالف أحمــد. لم يكونوا يرون في الامر شيئا؛ لأن النقد كان قضية معرفية واداة معرفيــة وليس اداة انتقاص.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟ كفى المرء نبلا ان تعد معايبه! كلمــا وجدنا اخطاء عديدة ونقدناها وحللناها وفسرناها، فذلك دليل علـــى عظـم العالم وجلالة قدره.

تقاليد احترام الاكــبر في الســن والمقــام. تقــاليد والحمــد لله متأصلــة في ثقافتنا، ولكن صاحب هذه التقاليد نوع من الانحــراف بمفــهوم الاحــترام. كما انحرفنا بمفهوم النقد. راجعت امرأة عمــر زوجــها في شــيء فغضــب. فقالت له: لم تغضــب وابنتــك حفصــة تراجــع رســول الله عليــه الصــلاة والسلام والوحي ينزل اليه. قال: أو تفعل ذلــك؟ فقــالت: نعــم. فذهــب إلى حفصة مغضبا. فاخبرته بصحة ذلك وبأن ذلك جزء من خلـــق رســـول الله عليه الصلاة والسلام. وانه يشجعهن على هــذه المراجعــة. فظــن ان ابنتــه تفعل ذلك متاثرة بما تفعله عائشة لصغر سنها وجمالها وقربها من رسول

الله عليه الصلاة والسلام. لكن حفصة نفت ذلك وقالت هو الذي يطالبنا بان نراجع وننقد.

واستدراكات عائشة على الصحابة استدراكات معروفة.

لكن ايضا العالم مطالب ان يكون نقده ومراجعته منطلقة من منطلق موضوعي بحت، وليس من منطلق تجريح وانتقاص أو محاولة النزول بمرتبة من ينتقد لاي سبب من الاسباب، لان ذلك يساعد على اشاعة كل المفاهيم الخاطئة.

الصحابة كانوا يراجعون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي ذلك قصص كثيرة. يا رسول الله أهو الوحي أم الراي والحرب والمكيدة؟ وهنالك الكثير من النماذج، عندنا تراث هائل في هذا الموضوع. نحن اهل التراث ينبغي ان لا ننتظر ان يأتي مستشرق أو علماني أو كافر أو عدو لينقد تراثي حتى ارد عليه. ولكن ينبغي ان نراجع تراثنا فنحن أولى به.

نحن أمة أصيلة وفكرة الاجماع وهي فكرة غير موجودة كدليل يعتمد عليه في قضايا التشريع الا عند هذه الامة ويعتبرونه دليلا من ادلتنا الشرعية. ومن انواع هذا الاجماع الذي عرفته امتنا في تاريخها في نطاق ضيق ما يسمى بالاجماع السكوتي.

لم تعرف امة فيما اعلم هذا الذي يسمى بالاجماع السكوتي كدليل أو كجزء من اجزاء الاجماع. ما هو الاجماع السكوتي؟ هو يعني سكوت العلماء، وسكوت الفقهاء وهو يعبر عن الرضا في الامر المطروح إلى مراجعة. والاجماع السكوتي أمر يأخذ به الشافعية في نطاق ما. بعض الحكام كانوا حينما يريدون ان يعطوا المشروعية، كانوا يدعون الفقهاء والآخرين

المعارضين في قصر السلطان، فيقوم قاضي القضاة بعد التشاور فيقول: الاصل كذا، والدليل لكذا كذا، والآخرون لا يستطيعون المعارضة، فقالوا هناك دليل يسمى بالاجماع السكوتي. حينما يكون جزءاً من فكرنا. قطاع من ثقافتنا. من الطبيعي ان تكون هنالك اصابة فكرية. وهي قد تبدو بسيطة لكنها بعد ذلك تتحول إلى سرطان جلد وإلى ما هو اكبر منه اذا لم تعالج. وكم من عالم اصيب بقضية الاجماع السكوتي هذا.

٨ ـ قضية الخروج عن الاجماع:

أمة يتحول فيها الاجتهاد الذي هو اول المطالب في دينها، يتحول إلى تهمة يعاقب عليها ويسجن. وفي كتب اخرى نجد مثل هذه الامثلة وفي تراجم كثيرة، النقد لسبب أو آخر تحول إلى محاولة لتفريق كلمة الامة. هنالك من يستغلون اخطاء معينة للتفريق. علينا ان يكون لدينا معيار نميز به بين النقد المعرفي والمنهجي الذي هو من داخل دائرة الالتزام بالاسلام وبين، النقد الذي يهدف إلى عملية الهدم وتفريق الامة. شاعت في ثقافتنا وترسخت في نفوسنا فكرة. (ما ترك السابق للاحق شيئاً). (ليس بالامكان ابدع مما كان) هذه عبارات قالها علماء السلف ومنهم ابو حامد الغزالي المتوفى ٥٠٥ هـ في مناسبات معينة. لكن تحولت إلى جزء من ثقافتنا. انهم عملوا كل المطلوب وكل ما علينا ان نستهلك هذا التراث ونحن مستريحون.

اذن من يقوم بمحاولة مراجعة أو نقد سوف نسلط عليه مثل هذه العبارات وسوف تجد نوعا من المقاومة الشديدة في ضمير الامة لهذا الاستقرار. ومعظم الذين استدركوا أو مارسوا النقد من علمائنا تعرضوا

لكثير من المشكلات في مقدمتهم الائمة الاربعة: (الامام الشافعي جـــيء بـه مكبلا بالسلاسل من اليمن إلى بغداد واوقف بين يدي الرشيد متـــهما لانـه حينما جاءه احد المشاغبين كالعادة ووجه اليه سؤالاً ملغوماً حول آل البيت اجابه ببيت شعر:

ان كان (رفضى) حب آل محمد   فليشهد الثقلان اني رافضي

الامام ابو حنيفة[1] معروف انه مـات بالسـجن لامتناعـه عـن القضـاء ولنقده. الامام أحمد[2] قصته معروفة ضربه المعتزلة إلى ان كادوا يقتلونـه. الامام مالك ابتلي وامتحن في قضية وهي موضوع طلاق المكره. خلفاء بني امية مرت عليهم فترة كانوا يـاخذون علـى النـاس البيعـة موثقـة بايمـان وعهود وبالطلاق. فالناس بدات تتحرج ان تخالفهم فجاءوا إلى الامام مالك ليسألوه. هل هذا الطلاق الذي في البيعة ياتي من قبيل طلاق المكره؟ فـراح علماء السوقة وقالوا للمنصور: ان الامام مالكاً يريد ان يقـول لهـؤلاء انـه لابيعة في اعناقكم لانه ربط البيعة بالطلاق. فجاء بـه واخـذ يضربـه إلى ان شقت يده. ولكنه لم يرجع عن فتواه. لكن لو راجعنا بعض الاقوال وبعض

---

(١) ابو حنيفة النعمان بن ثابت بن كاوس هرمز الفقيه المجتهد المحقـق، احـد ائمـة المذاهب الاربعة، اصله مــن فـارس، ولـد بالكوفـة (٨٠ ـ ١٥٠ هــ)، لـه (المسـند) و (المخارج) و (الفقه الاكبر) و (العلم والمتعلم).

(٢) احمد بن حنبل الشيباني ابو عبد الله من بني ذهل بن شيبان، الذين ينتمون إلى قبيلة بكر وائل، احد ائمة الفقه الاربعة، ولد ببغـداد، امتحـن ايـام المـأمون والمعتصـم ليقول بخلق القرآن، ولد عام ١٦٤ هـ، وتوفي عام ٢٤١ هــ، مـن مصنفاتـه (المسـند) وفيه ثلاثون الف حديث و (المسائل) و (فضائل الصحابة) وغيرها.

الفتاوى التي نعتبرها الآن آراء الامة، لا نجد ان المصدر قاله عالم واحد، ولكن هذا العالم كانت له مدرسة والمدرسة مثلا منتشرة وجاء من تبنى مذهبه أو آراءه. يعني الامام احمد بن حنبل قال عنه الطبري هو محدث وليس بفقيه حطموه. وكاد الطبري يموت صبرا. وكان الطبري مسجونا ثلاثة ايام إلاّ ان بعض تلاميذه استطاعوا ان يخرجوه. لماذا؟ لان الامام احمد كانت شعبيته طاغية جدا. وحينما توفي شيع جنازته حوالى مليون. لذلك اصحاب تراجم احمد حين يحبون ان يفاخروا فانهم يقولون بيننا وبينكم الجنائز. فلو حاولت ان تتبع رأياً او مذهباً أو قولاً شائعاً. فقد تجد ان الاصل فيه راي الامام واحد. ولكنه جرى تبني لهذا الرأي من خلال مدرسته وانتشارها. والعرف الموجود في افغانستان عرف الامام الاعظم. حدثت مشاكل الافغان حول قضايا الانتخابات والمراة فذهبوا إلى فقهاء فقالوا لهم: هم حنفية ولا يفتنون إلاّ بظاهر الرواية. فاصبحت اعرافا. وممارسة النقد لهذه الاعراف اصبح قضية تعتبر في غاية الخطورة. هل يعني مثلا ان اراجع «اهل السنة والجماعة»؟ وهو مصطلح اطلقته الحكومات على الناس الذين لم يكونوا يعارضونها. أو يرون الخروج عليها. وهل اهل السنة واهل الجماعة متمسكون بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ وهل يتمسك بسنة رسول الله من يتجاهل كتاب الله والعياذ بالله وهو اصل له؟ وهل يكون من الفرقة الناجية من يتجاهل ما شرعه رسول الله؟

حركات الاصلاح المعاصرة

اذا جئنا إلى حاضرنا نجد ان تيارات الاصلاح قد انقسمت في عصرنا هذا انقساما شديدا: فريق يتبنى ما عرف بالاصالة، يعني يحتضن التراث، كان هو كما اشرنا في موضوع تكريس الهوية. وآخر يحتضن المعاصرة كما هي. وللاسف الفريق الاول متشدد في التراث كما هو لا يقبل اي مراجعة مما ذكرنا. والفريق الثاني تشبث بالعلمانية والغرب والتقليد كما هو ايضا بدون اي مراجعة. فالانقسام حاد بين الفريقين وبين المدرسيتن. لو حللنا وجدنا مسلما علمانيا ومسلما تراثيا ماضوياً، لا أسميه تراثيا سلفيا، لان السلفية حقيقة كلمة جيدة ومفهوم اسلامي نعتز به، لكن ماضوي يعني يقدس الماضي أياً كان. لو وضعنا الاثنين وحاولنا ان نحلل مقولاتهم ونفسياتهم فماذا نجد؟ نجد ان كلاً منهم قد انطلق من منطلق التقليد. يعني لا الذي ذهب للعلمانية والغرب ويتكلم عن الابداع والحداثة والاجتهاد والمعاصرة عنده ابداع، ولا الثاني. فكلاهما مصاب وسبب الاصابة واحد وهو الثقافة التي عشعشت في مخه وركزت في رأسه، هذه ايضا مشكلة عدم مراجعة التراث فماذا كانت النتيجة؟ حينما جئنا إلى تراثنا اليوم وجدنا انفسنا ننقسم من حوله من حيث الجملة إلى ثلاثة مواقف. موقف يرفضه رفضا مطلقا. واذا عرفت الحداثة والتقدم والنهضة والمعاصرة فلديك النموذج الغربي خذه كما هو! يقول الدكتور طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر): انه ليس لدينا خيار اسلام ولا عروبة نريد نهضة. هذا النموذج الكلي امامك خذه كما هو، اباحي سوف تكون اباحيا. وعندما

تحدث مشاكل يقول لك: هذا ثمن التقدم. لكي تستمتع بمعطيات الحضارة. فهذا رفض التراث كله. خروج كامل منقطع، هم يسمونه في الوقت الحاضر قطيعة معرفية، قطع، بتر. كما قطعت اوربا قطعية معرفية مع تراثها اللاهوتي.

هناك فريق آخر: وهو رد فعل للفريق الاول ويرى القبول المطلق: السنة الماضية احسن من الآن، والتراث كله افضل، بل ليلة امس افضل من الغد. ماضوية مطلقة مع قبول مطلق دون مناقشة للتراث.

موقف أخير: وهو موقف ينطبق على معظم حركات الاصلاح الاسلامية في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن. هو موقف انتقاء ياخذ من التراث ما يرى انه صالح ومناسب. وياخذ ايضا من الغرب والمعاصرة ما يراه صالحا. قد يقول البعض هذا موقف طيب ! لكن لا. هذا كان ممكناً ان يكون الموقف السليم لو تم في اطار منهجي، واطار معرفي تستطيع من خلاله ان تحدد ما تاخذ وما تترك بطريقة منهجية وبمعرفة. لكن حينما لا نفعل هذا فقد اصبحت القضية راجعة لافكاره. يقول الاسلام ديمقراطي، ويأتي بأشياء من التراث وأشياء من المعاصرة ويجمعها مع بعضها، الموقف الصحيح هو موقف الذين ياخذون التراث والمعاصرة بمنهجية واضحة ترى الامور رؤية شمولية ولا تنتقي انتقاء عشوائيا.

منهجية التعامل مع التراث

اذا تجاوزنا كل ما ذكرناه وجئنا إلى عناصر منهجية التعامل مع تراثنا واردنا ان نتجاوز المواقف الثلاثة التي أشرنا اليها:

- فلا نرفض التراث رفضا قاطعا كما يفعل العلمانيون.

ـ ولا نتبناه تماما كما يذهب إلى ذلك الماضويون.

ـ ولا ننتقي انتقاءً عشوائيا غير ملتزم بمنهج علمي.

فما هو هذا المنهج العلمي؟ المنهج بسيط، كما يقولون: ومن شدة الظهور الخفاء، أحيانا يكون الشيء ظاهرا ولكن يصبح كأنه خفي ومعقد.

القرآن وتراث الامم السابقة

المنهج القرآني تعامل مع تراث الامم السابقة، تعامل مع التراث الإسرائيلي كله، مع التراث النصراني كله، مع تراث البشرية من عصر آدم إلى عهد سيدنا محمد، وذلك يعني انه يحتوي على منهج للتعامل مع التراث «أي تراث» يمكن ان تستصحبه للتعامل مع تراثنا هذا. هذا المنهج يعتمد اولا على الكشف عن القاعدة المعرفية التي ينطلق الناس منها في بناء أفكارهم، رؤيتهم للإنسان وللكون وللحياة، هذه الرؤية المتكاملة التي تشكل القاعدة التي ينطلق منها الناس في بناء افكارهم ومقولاتهم.

هذه القاعدة مثل ما يقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح: (ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب)[1]. هذه تمثل بالنسبة لقضايا المعرفة، القلب «ان صلحت تلك القاعدة التي ينطلق منها الناس في بناء أفكارهم صلحت تلك المضغة، وان فسدت تلك القاعدة فسدت تلك المضغة. فاذا كان الإنسان يحمل رؤية صحيحة عن الكون والانسان والحياة وعن خالق الكون وخالق الانسان والحياة والمعرفة صحت افكاره.

---

(١) رواه البخاري: كتاب الايمان باب فضل من استبرأ لدينه.

الجمع بين القراءتين في الامم السابقة

ان ربنا جل شأنه حينما ذكر الأقوام في القرآن الكريم كان يشير إلى عدة أشياء ثم يأتي إلى بعض التفاصيل. يشير اول ما يشير إلى الانحراف في هذه الرؤية.

ـ اما انه لا يؤمن بخالق الكون والانسان والحياة، ولا يدرك العلاقة بينه وبين الحياة والانسان.

ـ واما ان يشرك من لا تأثير له في عمليات الخلق والايجاد.

وأما ان يضل عنه بشكل او بآخر، فتضطرب الرؤية فتصير مثلا لمن يحب الحياة الدنيا، يقول: ﴿إن هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾[1]. أخطاء في رؤية الحياة. ويقول أيضا: ﴿وما يهلكنا إلاّ الدهر﴾[2]. أخطاء في رؤية الدهر. ويقول: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾[3]. ﴿أنا ربكم الاعلى﴾[4] فيصدقون.

فحينما تحدث رؤية أخرى أو اضطراب في الرؤية الاولى معنى ذلك ان القاعدة التي ينطلق منها الانسان قاعدة مضطربة فبالتالي متوقع ان المعرفة التي تقوم على هذه القاعدة لن تكون معرفة تتصف بالاستقامة.

نحن ذكرنا إضافة إلى هذا، اضافة للرؤية وبنيانها على العقيدة

---

(١) سورة الانعام الآية ٢٩.

(٢) سورة الجاثية الآية ٢٤.

(٣) سورة القصص الآية ٣٨.

(٤) النازعات الآية ٢٤.

وعناصرها، وقلنا ان العقيدة وعناصرها من شأنها ان توجد رؤية وتوجد تصوراً وللرؤية خصائصها وللتصور خصائصه. وإن هذا البناء هو الذي تنطلق منه العمليات المختلفة للبناء الفكري والمعرفي. اشرنا الى ان هذه الرؤية تتعرض لكثير من المؤثرات اهمها ان تفتقد القدرة على أن تجمع بين القراءتين (قراءة الوحي - وقراءة الكون). فنحن نؤمن بالغيب والكون والإنسان. والإنسان هو القارئ المتنقل بين الوحي والكون، إن عرف الجمع وأحسنه كانت المعرفة التي تنبثق منها الحضارة مهتدية، وان تم الجمع بين القراءتين بشكل خاطئ تلفيقي لا يمكن ان تعطينا المعرفة ما نريد.

التراث الاسرائيلي

فحينما آتي إلى تراث ما وأحاول أن أقوم بعملية نقده، أول شيء ينبغي أن أتجه اليه: ما هي القاعدة المعرفية الأساسية التي انطلق منها هذا التراث وقام عليها؟ هل هي قاعدة توحيدية؟ هل هي قاعدة وضعية؟ هل هي قاعدة شركية؟ هل هي قاعدة مختلقة؟

أتتبع هذا فحينما ارى القاعدة عند بني اسرائيل مضطربة أشد الاضطراب ﴿فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهه﴾[1] ايجيء السامري فيقبض قبضة من أثر الرسول فينبذها فيعمل لهم عجلا؟[2] وبدأوا يعبدونه، وكذا يأتون بالعجب العجاب

---

(١) سورة الاعراف الآية ١٣٦.

(٢) قصة السامري موسى بن ظفر قصة مشهورة جاءت في سورة الأعراف وطه وتتلخص القصة في ان: موسى عليه السلام حينما ذهب إلى ميقات ربه في جبل الطور قبض السامري قبضة من تراب اثر جبريل عليه السلام فجمع الذهب والحلي

حين يقولون: (إن الله جل شأنه في ستة ايام اشتغل وبنى السموات والارض ويوم السبت أخذ إجازة)[1]. والارض تقوم على قرن ثور، أعرف أن هذا قائم على قاعدة شركية ومنطلق خطأ، فلا أتوقع منه أن ينتج الا خطأ أو امرا مضطربا بشكل من الاشكال. ان استحضر الرؤية والتصور وأجرى محاكمة للرؤية والتصور وللقاعدة الفكرية التي ينطلق منها هذا.

الجمع بين القراءتين

فإذا انطلقت إلى مرحلة البحث للجمع بين القراءتين، يعني تأكدت من انه عنده رؤية سليمة وقاعدة فكرية، انتقل إلى الامر الثاني وهو هل جمع بين القراءتين ام لم يجمع؟ إذا وجدت اضطرابا في القاعدة أصلا لا أحتاج إلى هذا البحث لانه يجب ان اعرف من حيث الجملة ان هذه المعرفة معرفة مغلوطة وبالتالي ليس لي أن اتقبل منها شيئا والاصل أن أرفضها. أما ما أقبله منها فلا اقبله إلا بدليل يثبت صحته وسلامته. يعني إذا قبلت منها سأقبل الجزء الذي أتمكن من إثبات صحته أما الأصل منها فمرفوض لان قاعدتها مرفوضة.

لكن إذا اجتزت هذا الاختبار اتى إلى مسألة الجمع بين القراءتين. وأنفلت

وصنع منه عجلا والقى فيه قبضة التراب فدبت فيه الحياة وصار له خوار، فعبده بنو اسرائيل من دون الله.

(١) جاء في سفر التكوين في الاصحاح الثاني من العهد القديم (التوراة): (فأكملت السموات والارض وكل جندها، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله.

إلى البحث عن القراءتين في النموذج، هل هذا النموذج المعرفي الذي قام على تلك القاعدة الفكرية نموذج قائم على الجمع بين القراءتين أم قائم على التفريق؟ نموذج قائم على الجمع بشكل صحيح منهجي معرفي أو بشكل تلفيقي؟

الجمع بين القراءتين في التراث الاسرائيلي

لم يكن عسيرا علي وأنا أبحث في هذا التراث ان أكتشف من خلال نصوص ذلك التراث ما اذا كان فيه جمع بين القراءتين أم لا.

١ ـ عدم الصبر على طعام واحد:

على سبيل المثال نعود إلى التراث الاسرائيلي ونقرأ فيه فلا نجد جمعاً بين القراءتين على الاطلاق. نجد فيه قراءة واحدة وهي قراءة الغيب القائمة على العلاقة بالله جل شأنه، فيقول منذ بادي الامر يحتاجون إلى العدس، الفول، البصل، يعني نموذجه لا يقول له أبحث عن أرض زراعية وابذر وأزرع و ستجني الثمار، لان هذه القراءة غير واردة في ذهنه، وظيفة الارض غير ملتفت اليها، الوارد في ذهنه فقط هو ان يلجأ إلى الله ويقول له: هات فولا وعدساً وبصلا... الخ، فيقول لهم: ﴿اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم﴾[1]. قراءة واحدة.

٢ ـ تخاذلهم عن موسى (عليه السلام):

احتاج موسى عليه السلام أن يصل للأرض المقدسة لكي يكتمل شكل

---

(١) سورة البقرة الآية ٦١.

الدولة يقولون: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾[1] فيتيهون اربعين سنة كاملة حتى يتعلموا ان هناك قراءة أخرى لابد أن يقرأوها. وأن سنة الحياة تقتضي ان يقوموا بهذا الامر.

النقد في النماذج الصغرى:

فإذا أخذنا هذا ووجدنا القاعدة الفكرية سليمة، ووجدنا الجمع بين القراءتين سليما، تبدأ عملية القراءة لهذا التراث والتصديق عليه بمقتضى استرجاعه استرجاعا نقديا على مستوى آخر، غير مستوى البحث عن القاعدة الاساسية الفكرية التي انطلق منها في بناء تلك الافكار، وغير البحث عن أساس النماذج، وإنما آنذاك يبدأ البحث والنقد في النماذج الصغرى، أبدأ محاولة دراسته في إطار النموذج الكلي، وفي إطار القيم الحاكمة، ثم في إطار النموذج الجزئي الخاص بتلك الدائرة؟

التراث الاسلامي

آتي للتراث الاسلامي فإني أجد القاعدة الفكرية سليمة، عقيدتهم (الايمان بالغيب) وفي ادراك العلاقة بين الغيب والكون والانسان، في الجمع بين القراءتين، وأبحث عند ذلك، أجد علم الكلام مثلا وأريد أن امارس عملية نقد في علم الكلام واصول الفقه فماذا أفعل؟

أصول الفقه

ان علماء الاصول كانت القاعدة الفكرية حاضرة عندهم وسليمة، وفكرة

---

(١) سورة المائدة الآية ٢٤.

الجمع بين القراءتين موجودة، عندهم ايضا، ولكن أنا رأيت اشياء استوقفتني.

ما هو النموذج الصغير الذي تمت داخله عملية التوليد للأفكار الاصولية؟ كيف استنبط النموذج الاصغر وما دوره؟ لماذا تاسس؟ وكيف تأسس؟ فيكون الجواب ان اصول الفقه مجموعة من الضوابط والقواعد التي وضعها علماء الامة من أجل ضبط عملية الاجتهاد وممارسة الاجتهاد الفقهي، وهذه القواعد والضوابط بدأت بحجم ما، وتم تكاملها لتحقيق هذا الغرض خلال حوالى قرنين من الزمان،فقد بدأ الإمام الشافعي يجمع هذه الاصول في كتابه الرسالة. ثم تلاه العلماء وكتبوا حوالى خمسة آلاف دراسة وكتاب حول نفس الموضوع، بعضها يعارض الامام الشافعي وبعضها يؤيده، وبعضها يزيد عليه، وبعضها يضيف إلى ما قال.. الخ.

اذاً اصول الفقه علم يقيم القواعد التي نحتاجها لممارسة الاجتهاد في اصولنا الشرعية، ويؤدي بنا إلى الحصول على فقه نجيب به على اسئلتنا المتنوعة. وهو منضبط بضوابط النموذج الكلي، منضبط بضوابط الجمع بين القراءتين، منضبط بضوابط القيم الحاكمة العليا (التوحيد، العمران، التزكية). فأمارس عملية نقد بسيطة وسريعة وسطحية لهذا العلم من أجل التمثيل.

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وشرع من قبله

هناك مسألة من مسائل اصول الفقه تجدها في معظم كتب الاصول وهي: هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متعبدا بشرع من قبله

قبل النبوة وبعدها أم لم يكن؟ مسألة تبحث في أصول الفقه ويختلف العلماء حولها فبعضهم يقول: كان متعبدا بشريعة ابراهيم وكان على الحنفية و.. الخ.. حين يقول: ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾[1] يقال لو كان على شيء لكان قال له كنت على الشيء الفلاني.

مجرد ان يطرح هذا السؤال في هذا العلم هو دعوة لنبحثه وفقا للنموذج الكلي:

١ ـ هل يجوز ايراد هذا السؤال في دائرة معرفة يحكمها نموذج لكي يدرك العلاقة بين الغيب والكون والانسان ام لا يجوز؟

٢ ـ هل في دائرة الجمع بين القراءتين مقبول طرح مثل هذا النوع ام لا؟

٣ ـ هل في دائرة النموذج الاصغر الذي ينبثق عنه اصول الفقه مقبول ام لا؟ ليس مقبولا. لماذا؟ إذا هي مسألة غريبة ليست من المسائل التي تندرج تحت نموذج هذا العلم. لماذا أدخلت؟ ومن الذي جاء بها؟ ومن الذي وضعها في هذا الاطار؟ ولماذا؟

الدراسة الانثربولوجية لبيئة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

لقد كانت بيئة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة ثم المدينة، عاش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نبيا رسولا بين هاتين المدينتين ثلاث عشرة سنة في مكة إلاّ قليلا وعشر سنوات في المدينة، المنورة لو أحضرنا واحدا وقلنا له أعمل دراسة انثربولوجية لبيئة مكة آنذاك ودراسة لبيئة المدينة فماذا نجد؟ نجد ان سكان مكة كانوا (الغالبية العظمى)

---

(١) سورة الضحى الآية ٧.

مشركين من عرب قريش وهناك بعض الناس الطارئة الذين جاؤوا من الروم والفرس والهند كأصحاب خدمات وهناك يهود يهتمون بالتجارة.

واليهود بالذات كان لوجودهم معنى كبير لأنهم كانوا ينتظرون نبيا كما أخبرتهم التوراة والانجيل، حينما نص على هذا سيدنا عيسى وقال: (أنا لا أستطيع ان اقول لكم كل شيء، أنا لن اغير من هذه الشريعة حرفا ولكن سياتي من يغير في هذه الشريعة ويأتيكم بما هو اخف مما أنتم فيه فانتظروه). فهؤلاء لهم وجود ثقافي. فالامة الموجودة لم يأتها من قبل نبي اقصى ثقافتها الشعر والتاريخ والانساب وقليل من علم النجوم والفلك، واليهود كانوا في مرحلة اعطاء، وليس في مرحلة أخذ.

فقد ذكر انهم اسهموا حتى في الحياة الادبية لاهل مكة مثل السموءل بن عادية[1] ذكر ان له شعرا مما يدل على ان هناك جزءا من اليهود على الاقل اندمجوا في هذه البيئة وحملوا هذه الثقافة في المدينة المنورة. ان المدينة ايضا كما اخبرت كتب بني «اسرائيل» سوف تكون مهجرا للرسول الخاتم.

واستوطن اليهود المدينة، بعضهم اندمجوا في أهلها واصبحوا بني فلان ويحملون اسماء عربية اعتبارية ولكنهم لم يكونوا يقلّون عن ثلث السكان. وبما ان البيئة الثقافية كانت امية فان الثقافة المتداولة بين الناس يغلب عليها ان تكون من ثقافة اليهود. وحينما جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب يسترجع ويصدق، هم يريدون ان يصادروا عملية النقد متشبثين بالتراث ـ تراثهم اليهودي. أمام هذا الطارئ الذي جاء ليغير.

---

(١) السموءل بن عادية شاعر يهودي شهير في الجاهلية.

لوقت قريب، في بعض البلاد التي عاش فيها اليهود كان من الناس من لا يثق إلاّ في اليهودي كمحاسب خاصة. أنا عشت في العراق ومصر قليلا أعرف أسرا كثيرة وأعرف تجارا كثيرين لم يكونوا يثقون إلاّ في اليهود! واعرف ان كثيرين كانوا يتناقشون مع اليهود حول كثير من القضايا الغيبية وسواها وعن كثير من القضايا التي فيها رؤية مستقبلية. واليهود في الخمسة قرون الاخيرة حولوا قضية التنبؤات وقراءة المستقبل إلى اداة ووسيلة ممتازة جدا استغلوها لتنفيذ مصالحهم. وهذا اليهودي الذي زعم قبل ثلاثين عاما متنبئا بكل احداث العالم بما فيها الحرب العالمية الاولى والثانية، واصدر هذه الافكار في كتاب مطبوع بلغات اوربية مختلفة، وله فيلم ايضا، حتى قضية حرب الخليج تنبأ بها. والغريب ان الكتاب نشر بالعربية في العراق.

هل كان الرسول مقيدا بشرع من قبله قبل النبوّة؟

عندما نلاحظ دراسات المستشرقين الآن الذين يقولون لم يكن سيدنا محمد إلاّ نصرانيا خرج على الكنيسة الكبرى وقرر ان يبني كنيسة عربية خاصة به، فاقترح هذا الدين الذي سماه الاسلام، اريد ان أفهم كيف ان علماءنا ادركتهم غفلة الصالحين، وجاءوا يعالجون هذه القاعدة فيدخلونها في مباحث الاصول؟ ليس هي مجرد ان تثار كسؤال في المجال الفكري وتستمر متداولة في دراساتنا الاصولية إلى يومنا هذا. هذا كاف لكي يعطي مؤشرا فكريا شديد الخطورة، بل هل كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم متعبدا بشرع من قبله قبل النبوة وبعدها؟

ضرورة مراجعة التراث

كانوا يقولون: هل أنت في مستوى الإمام الفلاني لكي تنقده؟

اختبار التعيين:

كان في الازهر في أوقات متقدمة في الخمسين شيء اسمه (اختبار التعيين)، يأتي لك بكتاب من الكتب ويعين لك صفحة محددة ويقول: إقرأ واشرح وأمامك لجنة من مشايخ كبار استخرج الناحية البلاغية فيها. صغها من ناحية القياسات المنطقية. فند الدعوى القائمة فيها. استدل لهم رد عليها. بهذا كانوا يذودون الطالب العلم ويعلمونه وليس في هذا الذي نقوله شيء جديد. بالعكس هذا هو من تعليم التراث اننا نراجع. ان ترك النقد وترك المراجعات مظهر من مظاهر تخلفنا وجهلنا وقصورنا العملي والمعرفي. ولكن لو ان اهل العلم قاموا بواجبهم في ممارسة هذه الامور لكان الامر مختلفا ولم يتجرأ هؤلاء الناس على هذا النوع من الممارسات.

اقوال الفرق الاسلامية وضرورة المراجعة:

ان أنفس مقالات المستشرقين وليس هؤلاء المتطفلين على موائدهم اذا تتبعناها لوجدنا من علماء المسلمين من الفرق المختلفة من قال بمثلها واشد، وردت عليه ونوقشت معه، وكتب الفرق والملل والنحل ملأى بهذه الاشياء، و(الانتصار) للقاضي الباقلاني اورد فيه كل ما يتعلق بنقل القرآن وتواتره، هذا الكتاب قيم جدا. وهو مخطوط، ولا يوجد غير مخطوطة واحدة في العالم وآتيت بها. ولكن بعد فترة لما رأيت الشبهات التي اوردها

لبعضهم لم اخرجه، لماذا؟ لانه متقدم تماما في هذا. فلا ينبغي ان تتجاوز النقد وترفضه وتخاف منه، مع انه اداة ووسيلة معرفية ضرورية جدا، اذا لم تمارس فستكون كالحاطب ليلا. مرة يأخذ الثعبان يظنه عصا ومرة يأخذ العصا فيظنها امراً آخر.

قضية رجم اليهودي في التراث الاسلامي:

يقول اليهود لقد اعترفت بصحة ديننا وتصلي إلى قبلتنا؟ على ماذا نحن نتبعك؟ كل ما هنا أنك اتيت بمسألة جديدة نحن غير محتاجين لها. كانوا يذهبون اليه عليه الصلاة والسلام في المسائل التي فيها تخفيف. هم مدركون ان شريعته عليه الصلاة والسلام شريعة تخفيف ورحمة. فلما حدثت عندهم حادثة زنا يهودي ويهودية. فهم يعرفون انه نزل القرآن بالجلد وذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مؤملين ان يكون الامر خفيفا فنزل القرآن الكريم يقول: ﴿إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والاحبار والربانيون بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فاحكم بينهم بما أنزل الله، ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون﴾[1] ﴿وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[2] فقال لهم هاتوهم نرجمهم. فقالوا له لا يا أبا القاسم أنت لا يوجد في شريعتك رجم، في شريعتك جلد. قال لهم: ماذا في التوراة، أمرت ان أحكم بالتوراة،

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٤.

(٢) سورة المائدة الآية ٤٧.

انا مامور الآن ان احكم بالتوراة. رفضتـــم اتبـاعي وتقولـون أنـني لم آت بشيء كل ما جئت به كان أنبياؤكم قد جاءوا به. الآن نحتكم بالتوراة ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين﴾[1] جاءوا بالتوراة فوضع القـارئ اصبعه على آية الرجم. (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة نكالا من الله) وقرأ ما قبلها وبعدها ولم يقرأها. فعبد الله بن سلام[2] كان قـد دخـل الإسلام وهو حبر من أحبارهم قال: يا رسول الله مره فلـيرفع يـده عنـها وليتلُ ما تحتها. قال: ارفع يدك فرفــع يـده: فـرأى (الشـيخ والشـيخة إذا زنيا...). قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسـلم أرجموهـم فرجموهـم. فإذا مرت في تراثنا هذه القضية ولم أرصدها ولم احاول ان اتخلص منـــها أو اعرف لماذا جاءت معنى هذا انني لا أعرف كيف امارس نقدا.

مطالبة الكافر بمسائل الشريعة

قضية أخرى ومسالة أخـرى مـن مسـائل أصـول الفقـه، هـل الكفـار مخاطبون بمسائل اصول الشريعة؟ يعني اليـهودي والنصرانـي هـل هـو مطالب بأن يصوم ويصلي ويحج البيت أم ليس مطالبـا؟ اختلـف النـاس. فالاصوليون تكلموا بهذا فمنهم من قال انه مطالب وقيل لهم: مطالب لماذا؟ فقالوا هو ليس مطالبا مطالبة اداء ولكنه يزداد عليه العـذاب يـوم القيامـة، حسنا أنت مالك يوم القيامة؟ هذا ليـس شـغلك. فاسـتدلوا بقـول الله جـل شأنه حينما يسال أهل النار يوم القيامة ﴿ما سلككم في سقر، قالوا لم نـك

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٣.

(٢) عبد الله بن سلام صحابي جليل كان حبرا من أحبار اليهود.

من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكـذب بيوم الدين﴾[١].

نسخ شريعة بني اسرائيل

(شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ) قاعدة أصولية اخرى. فـالله سبحانه في سورة البقرة ببساطة شديدة في الآيات الاولى ذكر فيـها أنواعـا للناس عند نزول القرآن، مؤمنين، كافرين، منافقين. وذكر بها قصة الخلـق كبديل عن سفر التكوين، خلق آدم واستخلافه، ثم بدأ مـن الآيـة الثلاثـين تقريبا إلى الآية السادسة بعد المائة، الكلام كله عن بني اسرائيل قـص لنـا قصتهم كاملة وعقب عليها ﴿ما ننسخ من آية او ننسها، نأت بخير منـها أو مثلها، ألم تعلم أن الله على كل شيء قديـر﴾[٢] ﴿الم تعلـم ان الله لـه ملـك السموات والارض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصـير أم تريـدون ان تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمـان فقـد ضل سواء السبيل﴾[٣]. الآية تتحدث عن نسخ شريعة بني اسرائيل. تاريخ بني اسرائيل، كل ما يتعلق ببني اسرائيل. هؤلاء لا يسـتحقون ان يكونـوا قادة لهذه البشرية نسخت آياتهم، وأمتهم، ومعجزاتهم، كـل شـيء نسـخ. قال تعالى: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾[٤].

---

(١) سورة المدثر الآية ٤٢ ـ ٤٦.

(٢) سورة البقرة الآية ١٠٦.

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٨.

(٤) سورة البقرة الآية ١٤٤.

هم جاءوا يعيرونك خذ قبلة خاصة بك وول وجهك شطر المسجد الحرام. وبدأت عملية التمايز.

أنا استغرب عندما يقول بعض الاصوليين ان النسخ جائز عقلا وواقع شرعا خلافا لمسلم بن بحر الاصبهاني واليهود. نحن متفقون مع اليهود في اشياء لكننا نختلف معهم في موضوع النسخ. التعبير نفسه. يعني تعبير فيه شاهد كبير. فشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ. ان الله جل شأنه وحد بين امة الانبياء وقال: إن ﴿هذه أمتكم امة واحدة﴾[1]. ولكن لم يوحد بين شرائعهم ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[2]. فان تخلط الخلطة بهذا الشكل ليقال انه شرع لنا ما لم يرد ناسخ يعني على ان اخذ الناسخ اولا حتى نتجاوز شرع من قبلنا. نحن نعرف ان شرائعهم قومية اصطفائية محصورة في بلدان وفي اقوام معينين لا تتجاوزهم، نعم تشريعات قبلية. ولذلك سرعان ما تنازلوا عنها وبدأوا يأخذون من تشريعات حمورابي والبابليين[3] والتوراة بدلت كلها وما بقي منها الا اقل القليل. يمكن ان يقال انه شيء يمكن ان ينسب إلى سيدنا موسى.

حكم الاشياء قبل الشرع

حكم ما قبل الشرع مسألة ايضا من مسائلنا الاصولية اختلف فيها

---

(١) سورة الانبياء ٩٢.

(٢) سورة المائدة الآية ٤٨.

(٣) حمورابي ملك قديم في بلاد الرافدين اشتهر بسن القوانين. واتسمت هذه القوانين بالصرامة والشدة وهو ما يعرف بـ (شريعة حمورابي).

العلماء. مسألة طويلة عريضة. فالبعض يقول ان حكم الاشياء قبل الشرع الاباحة. والبعض يقول الحكم المنع.. الخ. جدل طويل عريض طبعا لا تبنى عليه اشياء كثيرة. لكن السؤال كيف دخلت هذه الأشياء لتكون جزءاً من اصولنا؟ واين كان النموذج المعرفي؟ وكيف كان يشتغل؟ ولماذا لم تشتغل عملية المعرفة لتقوم بعملية تصفية ومراجعة ونقد وغربلة لتوقف دخول مثل هذه المسائل؟ حكم الاشياء قبل الشرع قضية خطيرة جدا ان الله يقول: ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾[1] ويقول: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان﴾[2]. أسأل ان قبل الكتاب والايمان هل استطيع ان آخذ احكاما؟ ماذا يعني؟ ليس معناه غير ان افتح الباب لأشياء اخرى اعطيها شيئا من المشروعية حتى ادرجها.

خطورة هذه المسائل

هذه المسائل لو اخذنا بها لعدنا على نظامنا المعرفي على القاعدة الفكرية ذاتها بالنقد. فهل يجوز للنموذج المعرفي الاصغر ان يتبنى قضايا من شأنها أن تعود عليه بالنقد؟ أو تعود على النموذج الكلي بالنقد؟ الجواب لا.

محكمة القضايا بالنموذج الكلي:

أنا كطالب اصول فقه وبعدالة شديدة استطعت ان اخرج هذه القضايا، وحينما، اراجع في اصول الفقه اجد عندي قضايا اخرى بنيت على هذا

---

(١) سورة الضحى الآية ٧.

(٢) سورة الشورى الآية ٥٢.

وضربت لكم واشرت إلى ان الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والجروح قصاص﴾[1] والضمير فيها يعود إلى التوراة. وبينا خصائص تلك الشريعة. بينما خصائص هذا النموذج الاسلامي ان شريعته شريعة تخفيف ورحمة. ولكن ترى لو قمنا بمراجعة لهذا التراث على ضوء هذه المحددات فما الذي سنكتشف؟ سنكتشف قضايا امة عاشت اربعة عشر قرنا ولها تراث متنوع وواسع جدا. فحينما نقوم بعملية المراجعة والتصديق عليه بكتاب الله وسنة رسوله، ومحاكمته للنموذج الكلي، سوف نجد العديد من القضايا التي تحتاج منا إلى مراجعة وحصر وتحديد في علوم مختلفة، سنجد مثلا من يقول ان القرآن الكريم يمثل وحدة بنائية كاملة لا تستطيع ان تجزّءه وانت تقرؤه واذا قرأت فيجب ان تعيد باستمرار الكلي إلى الجزئي، والجزئي إلى الكلي لكي تخرج بالمفهوم، فالوحدة البنائية كمفتاح منهاجي حينما تأتي لمحاكمة بعض التراث.

قضية النسخ

علوم القرآن تقول (ناسخ ومنسوخ) [2] وذكرت اسباب النسخ. فيحدث تعارض عند المجتهد. ويشعر ان هذا التعارض لا يستطيع ان يتخلص منه إلاّ بالحكم بالنسخ. حاول التأويل ما نفع، حاول الترجيح فلم يستطع،

---

(١) سورة المائدة ٤٥.

(٢) الناسخ والمنسوخ لغة: بمعنى الازالة يقال نسخت الشمس الظل: اي ازالته ونسخت الريح اثر المشي والنسخ في الاصطلاح: هو رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي.

فجاء بالنسخ، فحكم ان الآية ناسخة لتلك لاختلاف التاريخ بينهما. وقسموا النسخ إلى:

١ ـ نسخ حكم وتلاوة[١].

٢ ـ نسخ حكم مع بقاء التلاوة[٢].

٣ ـ نسخ التلاوة مع بقاء الحكم[٣].

وفرعوا تفريعات كثيرة في هذا المجال، وذكروا لها امثلة ونماذج.

الوحدة البنائية للقرآن

اذا قلت ان القرآن الكريم يمثل وحدة بنائية وان الوحدة البنائية تمثل

---

(١) نسخ الحكم والتلاوة مثال ما رواه مسلم وغيره عن عائشة: كان فيما انزل عشر رضعات معلومات يحرمن فنسخن بخمس معلومات...) (انظر: مباحث في علوم القرآن ص ٢٤٤، حكى القاضي ابو بكر في الانتصار عن قوم انكار هذا النوع لان الاخبار فيه اخبار آحاد.

(٢) نسخ الحكم مع بقاء التلاوة: مثال قوله تعالى ﴿يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ قيل منسوخة بقوله: ﴿احل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ وقوله تعالى: ﴿يا ايها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ قيل منسوخة بقوله: ﴿اشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فان لم تفعلوا وتاب الله عليكم فاقيموا الصلاة واتوا الزكاة﴾.

(٣) نسخ التلاوة مع بقاء الحكم مثاله (الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) وبعض اهل العلم ينكر هذا النوع من النسخ لان الاخبار فيه اخبار آحاد، ولا يجوز القطع على انزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد (انظر مباحث في علوم القرآن ص ٢٤٦).

عندي اداة اساسية في المنهج وسنستخدمها في منهجية النقد، هل استطيع ان اتقبل تراث الناسخ والمنسوخ؟ لا، لابد ان اراجعه اما كيف افسر؟ كيف اقول كيف اعتذر لمن قاله؟ هذه قضية اخرى، لكن لن استطيع ان اقبله واقول ان هذا هو البناء الموحد، هذه الآية تنقض هذه، لا. عندما اقول ان في القرآن وحدة بنائية هل يمكن ان اقبل الجانب الذي يقول ان في القرآن محكماً ومتشابهاً بمعنى مشتبه في الفهم؟ لا يمكن. لكن سوف ارجع للمصطلح القرآني وهي لغة القرآن التي استعملت التشابه قال تعالى: ﴿متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾[1] فمفهوم التشابه حينما نعيد قراءته وفقا للغة القرآن الكريم ذاتها واستعمالاتها المتعددة، واذا كنا نرفض ان نقول ان هناك كلمات واردة من لغات اخرى، فنرفض وبشدة ان هناك ما لا يفهم في القرآن لان في القرآن تبياناً لكل شيء. فهل يكون فيه ما لا يفهم؟ يمكن ان يكون غير مفهوم بالنسبة لي، لاني محدود أو لاني اي شيء، لكن لا يمكن ان يكون لا يفهم. سيفهم لمن يأتي بعدي أو بعد خمسة قرون، عشرين قرنا. لكن ان تنص انه مشتبه او متشابه يعني ملتبس على الفهم فليس بصحيح.

لكن عندما يكون فهمه من دائرة مفهوم القرآن في التشابه سوف أجد أن هذا التشابه مفهوم، وانه استعمال قرآني خاص لا علاقة له بمسألة الاشتباه. وانه حينما ارد المتشابه إلى المحكم، واشمل ما ذكروا انه متشابه لقواعد الاحكام، وأقرأ قراءة متكاملة، سوف اصل إلى فهم يزيل اللبس

---

(١) سورة الزمر الآية ٢٣.

والاشتباه واصل إلى ان هذه اللغة باعتبارها لغة القرآن وتخاطب عصورا مختلفة واجيالا مختلفة؛ لابد ان تشتمل على امكانات هذا الخطاب المتجدد المستمر مع العصور والاجيال لكي يعطي كل جيل ما هم بحاجة اليه. لكن عندما يقال يوجد علم اسمه علم المتشابه والمحكم (علم الناسخ والمنسوخ) أقول: لا أنا مضطر ان اعيد النظر فيها. لان عندي منهجاً يقول لي: ان القرآن، يمثل وحدة بنائية وانا منهي عن قراءة القرآن عضين واجزاء، فلماذا؟ ما الذي افعل هنا؟ استعمل محورا منهاجيا قائما على قراءة النموذج الكلي، قراءة القاعدة الكلية، تحديد محددات المنهجية:

١ ـ الجمع بين القراءتين.

٢ ـ تحليل النموذج المعرفي الاصغر.

٣ ـ النظر إلى القرآن، الكريم بانه يمثل وحدة بنائية باعتباره الاصل.

وبالنظر إلى ان السنة النبوية تتكامل مع القرآن تكامل المبين مع المتبين. وان القرآن مصدر منشئ وهنا مصدر مبين. في هذه الحالة اخرج من كثير من هذا. ولما يقال ان السنة تنسخ الكتاب وان الكتاب ينسخ السنة.

يجب ان اعلم ان هذه القضايا كلها من التراث الذي لابد من مراجعته. هذه مجرد معالم بسيطة جدا لم تتحول إلى مستوى متكامل. ولا تزال هناك جملة من المحددات المنهجية التي يمكن ان تستخدمها في مراجعة كثير من قضايا تراثنا واعادته إلى دائرة الكتاب والسنة بشكل صحيح. بالنسبة لعمليات النقد والمراجعة لكل نسق ثقافي أو حضاري مهما يكن قديما أو معاصرا لا بد عند نقده من مراجعته بناء على ما ذكرت.

ضرورة المراجعة من داخل النسق وقواعده ونماذجه

لو حاكمت التراث إلى المنهجية الغربية الآن وقلت انما ارفض هذا لانه يخالف المنهج، حتى العلم التجريبي الغربي انا اكون ظالما له في هذا المبدأ ومتجاوزا للحدود، لاني احاكم تراثاً قد اتبع وفقا لنسق معين ولقواعد فكرية معينة بأدوات ووسائل اخرى من خارج النسق. وهذا خطأ. لكن هذه المحاكمات وهذه المراجعات يجب ان تتم من داخل النسق، ونماذج النسق نفسه، ولذلك لم احاكم اي قضية من هذه القضايا بانها تخالف المنهج التجريبي أو تخالف المنهج العلمي، انها غير معقولة، وانما كانت محاكماتي بالنماذج التي اتيت بها من الاصول أو من غيرها من داخل النموذج وبناء عليه. وحينما ناتي إلى محاكمة التراث الغربي سهل جدا ان نحكم عليه بالكفر. لكن ينبغي ان نحاكمه لنموذجه هو. وانا ذكرت سابقا كيف تطورت المعرفة الانسانية من بداية ما يسمونه بعصر الانوار الاوروبية إلى ان بلغنا المنهج العلمي التجريبي، فالآن لدينا منهج علمي تجريبي تعتمد عليه الحضارة الغربية. فمحاكماتي لها يجب ان تتم على اساس المنهج العلمي التجريبي، فانا لم آت لأحكم عليه بناء على مخالفته للإسلام. سأقول في وصفه هو منهج قائم على رؤية مضطربة للعلاقة بين الغيب والكون والانسان، واقول انه اهمل الجانب الغيبي وتبنى الاتجاه العلماني، هذا سأقوله وصفا. ولكن حينما أعمد إلى عمليات النقد لا يجب ان امارس النقد فيه إلاّ وفقا لمعاييره هو. فما هي معاييره؟ على ذلك سيقولون

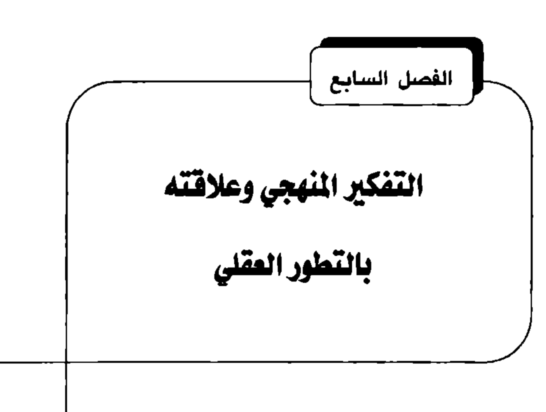
نحن نعتمد على المختبر والتجربة، ونعمل احصاء واستقراء، ونضع ملاحظات، ابدأ احاكمه على نفس النسق واقول له: انت صحيح تبنيت المنهج العلمي التجريبي، لكن هناك ازمات سوف تعاني منها، تعترف ان عندك ازمة حادة جدا على مستوى منهجيتك وانك دائما تحاول ان تعالجها، لكن معالجتك دائما سطحية ومهزوزة، حتما سوف يعترف. نحتكم إلى المنهج التجريبي أو نموذجك المعرفي الذي تتبناه، وهو منهج قعد بك عن معالجة مشكلاتك لاسباب بسيطة جدا ومنهجية مقبولة عندك، من شأن المنهج كقانون ان يعطي امتدادا لا يتوقف، ولكن المنهج وقف بالنسبة لك ولم ينطلق وانت تعاني من ازمات نتيجة هذا التوقف، لانك تجاهلت بعد الغيب ونظرت إلى ان الحياة ما هي إلاّ انسان وطبيعة. ووجدت بعض مدرستك تتحدث عن جدل الطبيعة، ومدارس اخرى تتحدث عن جدل الانسان، وقصرت الامر على هذا، كانت النتيجة انك وقفت في منتصف الطريق ولم تستطع الامتداد بعلومك الكونية أو الطبيعية ولم تستطع الامتداد بعلومك الانسانية ودخلت (جحر الضب)، فأنت محتاج بمقتضى هذه المنهجية التجريبية ان تتحاكم اليها. ان تعيد النظر في المنهج. والمنهج يحتاج ان تضاف اليه عناصر تسمح بامتداده، أنا اضيف هذا العنصر من خلال الغيب، لان الدنيا عندي متصلة، اما انت فمنهج جدليتك ادى بك ان تقف عند الحياة، واعطيك تفسيراً مغايرا لتفسيرك. وحينما اعطيك هذا التفسير سوف تبدأ عملية الحركة من جديد، وتبدأ عملية الامتداد، وتخرج من دائرة العبث، ودائرة العدمية ودائرة نهاية التاريخ، وغيرها من مظاهر

ازمتك. هنا تصبح عملية الدعوة وممارسة الدعوة لهؤلاء هـــي عمليـة نقـد لعلمه ومعرفته ولمنهجه وحضارته، وتقديم بدائل من داخل هذا النموذج في الوقت نفسه.

ما علاقة اسلمة المعرفة بذلك؟

الاسلمة تقوم على منهج معرفي قرآني محدد يستوعب المادية القائمـة في المنهج العلمي التجريبي ويستوعب الوضعية، ويســتوعب ويتجـاوز كذلـك اللاهوت (بمفهومه الكنسي) الذي يستلب الانسان والطبيعة ويعتبرهمـا في حالة جبر، لا شيء، لا فعل ولا حركة.

فاسلمة المعرفة بحكم اعتمادها على القرآن الكريـم باعتبـاره يقـدم لنـا منهجية معرفية ووعيا ومفاهيم ويستوعب الكون وحركته، يستطيع بـاذن الله ان يقدم منهجا قائما على ما ذكرنـا، يتكـامل مـع منهجيـة التصديـق والهيمنة والاستيعاب والتجاوز. والنهج الاسلامي نــهج مفتـوح لا ينغلـق على اي عصر من العصور، وفي أي عصر من العصور، يمكن ان يســتعمل لمراجعة كل ما سبق، ولمراجعة كل ما هو قائم.



الفصل السابع

التفكير المنهجي وعلاقته بالتطور العقلي

التحليل النصي

امامنا نص لغوي اريد ان نسمع معا، ونحاول ان ندخل بعمليــة تحليـل لمعرفة منطلقات الكاتب لمعرفة ما هو النموذج الكلي الذي في ذهنه. هل هــو نموذج توحيدي أو غير توحيدي؟ لعل هذا يعطينا نوعا من التطبيق على ما ذكرناه. يقول صاحب النص:(استغرق تطــور مقــاييس الفصاحــة حــوالى خمسة قرون اختلف اثناءهــا البلاغيــون في جميــع هــذه المقــاييس، وكــان مرجعهم الذوق والمزاج سواء في وضع مقاييس جديدة أو انتقــاد بعضــهم البعض دون وجود مرجع موضوعي يمكن الاحتكام اليــه في ترجيـح رأي على رأي أو استنباط تلك المقاييس منه بطريقة منطقية).

البحث الحالي يستعمل نموذج ظاهرة اللغة، وهنــا نريـد بكلمــة نمـوذج «مثال» وليس النموذج المعرفي، ونموذج عملية الاتصال في بناء نموذج لنقل الافكار من ذهن المرسل إلى ذهن المتلقي.

واهم نتاج استخدام هذا النموذج

١ ـ انه قدم لنفسه مرجعا موضوعيا في معرفة صحة اي مقياس فصاحي.

٢ ـ انه وضع المزيد من الشروط المنطقية اللازمة لفصاحة الكلمة والكلام.

٣ ـ من جهة اخرى استفاد البحث من نتاج الدراسة الحديثة في الشفاهة

والكتابة لينتقل من فصاحة الشــفوي والـتي كـان حـولهـا مـدار بحـوث البلاغيين إلى فصاحة المكتوب الذي لم يطرق حتى الآن.

٤ ـ توصل البحث إلى ان نموذج نقل الافكار صالح لنوعــي الفصاحــة. وهذه النتيجة تدعم النموذج، لان النموذج الذي يعبر عن الموجود فقط انمـا يعتبر وسيلة وصل لديه لا تقدم جديـدا، امـا النمـوذج الـذي يسـتخدم في استكشاف المجهول فهو يرجى اسهامه في تطوير العلم.

تحديد النموذج المعرفي

كيف نستطيع من خلال نص لم نسم كاتبــه ان نحـدد نمـوذج الكـاتب المعرفي: نموذج ديني ، اسلامي ، علماني، توحيـدي، شـركي، لا توحيـدي، غربي، تراثي؟ اريد ان نعرف كيف نحلــل نصــوص أو اشـياء نقرؤهـا أو نسمعها أو ندرسها وندرك من خلال هذا التحليــل النمـوذج الكـامن وراء النص الكاتب ماذا كان يريد ؟ يعني نقرأ ما وراء النص من خلال النص.

طريقة تفكيك النص

ان الطريقة التي ينبغي ان يتم فيها الحكم يجــب ان تكـون علــى طريقـة تفكيك النص وتحليله واستنطاقه ثــم اعـادة تركيبــه مــن جديـد لاكتشــاف النموذج الذي انطلق منه الكاتب، ولا داعي ان يصرح بالنموذج، هناك كــاتب هو عمدا يقصد ان يخفى نموذجه، ويوصلك معلومة ويخفي هويته تماما.

النموذج والترويض العقلي

ما زلنا منذ مائة سنة تقريبا نستهلك اطروحــات مختلفـة حـول انتمـاء

اسرائيل لفلسطين وللمنطقة ونبتلعها ونجترها شيئا فشيئا، دون معرفة النموذج الكامن واهدافه. اي نص كان يتكلم عن اننا تجمعنا الاديان الابراهيمية، اننا لا زال عندنا ثلاثة اديان، والثلاثة اديان ابراهيمية، ابونا واحد، نحن وهم ابونا ابراهيم، هم ابوهم اسحق، ونحن ابونا اسماعيل، كل هذا كلام نحن نسمعه ونقرؤه في بحوث، وفي دراسات، وفي كتب، وفي صحافة. وفي موعظة، وفي تفسير، وفي حديث وفي كذا، ويمر، ولكن تراكماته ادت إلى ترويض هذا العقل ليتقبل فيما بعد النتائج التي ارادها النموذج.

تفكيك النص السابق

فنحن مثلا نقوم على هذا النص بعملية تفكيك:

استغرق تطور مقاييس الفصاحة حوالي خمسة قرون (خمسة قرون) و(تطور) هما: الركنان الاساسيان الموجودان في هذه العبارة. يجب ان نفهم ماذا يريد بالتطور وقضية الخمس قرون. انا عندما اريد ان أقرأ النص وأحلله يجب ان أفهم الصحة. والاول (تطور) استخدم كلمة تطور، ماذا يريد بالتطور ؟ هل يريد مفهوم التطور الذي يغرقه في قضايا التنمية، وقضايا الاقتصاد مثلا، أو في اطاره الفكري؟ لكن لابد من وقفة تحليل. (اختلف اثناءها البلاغيون في جميع هذه المقاييس). جميع هذه المقاييس. كلها تحتاج إلى تحليل وتفكيك ثم اعادة تركيب لاقول: صحيح ام خطأ. هل حصل هذا الاختلاف كواقعة ؟ وهل حصل في جميع هذه المقاييس فعلا ام في بعضها مثلا؟ لن استطيع الحكم عليه إلاّ بعد عملية التفكيك. وكان مرجعهم الذوق والمزاج سواء في وضع المقاييس أو انتقاد بعضهم البعض. وضع المقاييس شكل. و (النقد) شكل آخر. هو يريد ان يشير إلى حقلين معرفيين:

١ ـ حقل وضع المقاييس.

٢ ـ وحقل النقد.

يجب ان نفهم ان النص خطير، ليس نصا سهلا وبسيطا، النص فعلا مكثف، والكاتب عقلية هندسية، قام بتركيب النص بعقلية ترميز رياضي تقريبا. الكاتب مهندس، ومهندس الكترونيات. قضايا كمبيوتر. والنص ينطق بهذا تقريبا.

(دون وجود مرجع موضوعي يمكن الاحتكام اليه لترجيح رأي على رأي أو استنباط تلك المقاييس منه بطريقة موضوعية). دعوى كبيرة جدا، وخطيرة للغاية، ليس هناك مرجع موضوعي يمكن الاحتكام اليه في ترجيح راي على رأي أو استنباط تلك المقاييس منه بطريقة منطقية. كلام خطير جدا.

فعلا تجيء هنا مسألة الاعجاز وتصبح قضية موضع نظر واخذ ورد. البحث الحالي يستعمل نموذج ظاهرة اللغة، ونموذج عملية الاتصال في بناء نموذجه. هو يقصد بالنموذج هنا «مثال» ونظام معرفي لانه افصح فيما بعد في النص، على انه يريد به النظام المعرفي، النموذج المعرفي وليس اي نموذج. المهم ان اي نص، اي كلام، مجرد ان يدخل الدائرة الانسانية حتى النص المعجز (القرآن الكريم) السنة النبوية. اقوال الائمة. الدراسات. الكتابات. سنختلف حولها. سنختلف في فهمها.

القراءة المعرفية

هذه هي النتيجة وهذا يعني انه ليس هناك مرجعية لكن كيف يمكن ان نقلل من حجم الاختلاف لايجاد نوع من المرجعية في عملية التنازع؟ التقليل

انما يتم بعملية ما نسميه بـالقراءة المعرفيـة. والقـراءة المعرفيـة دعامتـها الاساسية تقوم على عملية تفكيك وتركيب ربما لعدة مرات. قد تضطـر ان تفكك النص وتغير تركيبه مرات عديدة وتركب على التركيب إلى ان تنتـهي، بماذا؟ بالوصول إلى النموذج، نموذج الكاتب، ماذا يريد؟ هل فعلا هو يريد، مثلا، نفي فكرة الاعجاز أو الطعن فيها اويريد شيئا آخر؟ هل هـو منطلـق من نموذج يقبل فكرة التلفيق، فـهناك نمـوذج ابداعـي اجتـهادي، وهنـاك نموذج ملفق، فقط ملفق، يضع شيئا بجانب شيء، بغـض النظـر عـن انـه يكون صحيحا علميا أو غير صحيح حتى يستخرج شيئا، وهذا ما نسـميه (بنموذج التلفيق). هناك نموذج التوفيق، انه يريد ان يوفـق فقـط، لينـهي الخلاف. هناك نموذج مقارنة. هناك نموذج ايديولوجي. يعني مثلما ذكرنا، ماو، أو ريجان، أو كلنتون، نموذجه موجود. ونموذجه هو الذي عنده مـن الايديولوجية. وانا مسلم، اريد ان اعبر عن عقيدتي المسلمة. انا الآن متبـني فكرة اسلامية المعرفة حاولت ان اقيم النظام المعرفي الاسـلامي كلـه علـى العقيدة. يمكن ان يأتي انسان آخر يقول لي انا غير محتـاج لهـذه العقيـدة، ونفس النظام المعرفي استطيع ان اقيمه بطريقة اخرى. صحيح، غلـط، هـذا ليس موضوعنا، لكن اي نص يواجهنا، مـا لم نقـرأه قـراءة معرفيـة، لـن نستطيع ان نصل إلى ابداع. الانسان مطالب بـالابداع مطـالب بالاجتـهاد. التقليد يؤدي إلى النار ﴿انا وجدنا آباءنا علـى امـة..﴾[1]. ليـس مـن شـيء حاول الاسلام ان ينهيه ويوقفه كالتقليد. بكل انواعه.

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢٣.

وحتى مسألة التقليد الفقهي قالوا: مسألة التقليد هي ان يجتهد العـامي لمعرفة من عليه ان يقلده. يعني ولو الحد الادنى من الاجتهاد ليجتهد. هناك امامه اربعة أو خمسة يجتهد فيمن هو اعلمهم من هو افقههم. ليكون لديـه قدرة على النقد وقدرة على الحكم. حينما اطالب العامي واقول له موجـود مثلا في المكان الفلاني خمسة مشايخ، ولا يجوز لك ان تقلد اياً منهم، وانما ان تفكر فيهم وتبحث ثم تقرر من تقلد. انما علمته خطوتين أو ثـلاث مـن خطوات الاجتهاد وهي الموازنة والمقايسة والنقد والترجيح.

جدوى القراءة المعرفية

القراءة المعرفية تفيدنا بماذا؟ حينما اكتشـف النمـوذج الكـامن في ذهـن الكاتب، واكشف عن ايديولوجيته، غايته، ومقاصده، عندمـا التقـط النقـاط الاساسية واعرف الغاية، وانا مدرك لنمـوذج الكـاتب. الكتـاب قـد يكـون مائتي صفحة وأقرأ منه أماكن متفرقة، ويكفيني هذا، قد تفوتني جزئيـات، الجزئيات غير مهمة اساسا عندي، حينما أكون قد وصلت إلى هذا النمـوذج فقد وصلت الغاية.

حتى في القرآن الكريم هناك بعض الكتـاب كتبـوا فيمـا يسـمى «عمـود السورة». ان لكل سـورة عمـوداً وهـذا العمـود حـين تكتشـفه أو تفهمـه تستطيع ان تفهم السورة ولو بالفهم العام.

القراءة المعرفية تقوم على عملية ماذا؟ عمليـة تفكيـك.. اعـادة تركيـب. وجوب اكتشاف النموذج ولو كان كامنا. يعني ليس بالضرورة أن اعـرف الكاتب، ولا هويته، لأحكم عليه بأن هذه كتابه منطلقة من نموذج توحيدي.

هذه كتابة منطلقة من نموذج علماني. وقد يكون الانسان متدينا ومسلما وتقيا في نفسه، ولكنه متبني النموذج الوضعي المعرفي وينطلق من هذه المنطلقات.

تحليل نص للامام الشافعي

آخذ نصاً آخر: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والناس صنفان: احدهما اهل كتاب بدلوا احكامه، وكفروا بالله، فافتعلوا كذبا صاغوه بألسنتهم، فذكر تبارك وتعالى لنبيه من كفرهم، فقال **﴿وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾**[1]. ثم قال: **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون﴾**[2]. وقال تعالى: **﴿وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾**[3]. وقال تعالى:**﴿ألم ترى إلى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين امنوا سبيلا﴾**[4].

وصنف كفروا بالله، فابتدعوا مالم يأذن به الله، ونصبوا بايديهم حجارة

---

(١) سورة آل عمران الآية ٧٨.

(٢) سورة البقرة الآية ٧٩.

(٣) سورة التوبة الآية ٣٠.

(٤) سورة النساء الآية ٥١.

وخشبا وصورا استحسنوها، ونبذوا اسماء افتعلوها، ودعوها آلهة عبدوها فأولئك العرب، وسلكت طائفة من العجم سبيلهم في هذا، وفي عبادة استحسنوا منحوتا ودابة ونجما ونارا وغيره فذكر الله لنبيه جوابا من جواب بعض من عبد غيره من هذا الصنف، فحكى جل ثناؤه عنهم قولهم: ﴿إنا وجدنا اباءنا على امة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[1]. وحكى تبارك وتعالى عنهم ﴿لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يعوق ويغوث ونسرا وقد اضلوا كثيرا﴾[2]. وقال تبارك وتعالى: ﴿واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا، اذ قال لابيه يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا﴾[3].

السؤال الآن: إلى اي قرن نستطيع ان ننسب هذا النص من القرون الاسلامية الاربعة عشرة ؟ فالنص ينتسب إلى القرن الثاني، النص يدع القرآن يتكلم، اكثر مما هو يتكلم هذا شأن الاقدمين.

في هذه المرحلة بدأ القرآن يأخذ موقع الاستشهاد والاستدلال، لكن هنا الامام الشافعي كالامام مالك، هؤلاء الائمة كان دائما قولهم تعقيبا على القرآن الكريم وليس العكس، فهذا اسلوب ذلك القرن.

الشيء الآخر والنقطة الاساسية ان النص ايضا يحتاج إلى تفكيك وتركيب. صعب جدا ان يقال فيه قول بدون عملية التفكيك والتركيب. انت عندما فككت فان الاشياء التي اكتشفتها في استنطاقك للنص، هي التي

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢٣.

(٢) سورة نوح الآية ٢٣.

(٣) سورة مريم الآية ٤٢.

ستجعلك تعيد تركيبها. تحوله إلى شواهد. نص كهذا يعود لسنة خمس وتسعين ومائة للهجرة استخدام كلمة صنف، الكفر، الابتداع، نصب الحجارة، وتحويلها آلهة، الصور المستحسنة، تبدو اسماء افتعلوها، بعد القرن الثاني يصعب ان تجد من يستعمل «تبدو اسماء»، يستعمل «سموا اشياء» اللغة تختلف. اضافة إلى عملية التفكيك والتركيب والكشف عن النموذج، وهذا نموذج واضح. الانسان يريد ان يشد الناس كلهم للنص، النموذج الكامن يريد ان يشد الناس شدا إلى النص، يعني في راسي قضية، احس ان هناك معركة بين النص والعقل أو شيء آخر، فيريد ان يشد الناس إلى النص ويجعلهم يعيشونه بشكل كامل، فما عنده كلام، كلامه بسيط جدا والنصوص اكثر من كلامه. يريد ان يبرهن انك انت لست في حاجة إلى شيء آخر يجاوز هذا. وهذا اهم نموذج يكاد يكون كاملا في ذهن كاتب كالامام الشافعي، كان يقود معركة النص والرأي والعقل. ويكتب في مقدمة كتابه الاصولي، الذي هو مكرس لمعالجة هذه القضية. شيئاً آخر، استعمال كلمة «العجم» و «الاعاجم» هذه لها عصر وتوقفت عنده لتفسح صدرها بعد ذلك «للموالي».. ثم لتختفي الكلمتان وتصبح ديلم، ما وراء النهر...الخ. هذا لغاية مختلفة.

التطور الدلالي

هذا النوع من النصوص يفرض علينا ان نفكر فيما نسميه بالتطور الدلالي للكلمة. ان الكلمة ككائن حي، تولد صغيرة كالطفل وتنمو وتشب وتصل الكهولة وتشيخ وتنقرض. ويولد لها بديل، واحيانا تتم لها عملية تجديد من خلال الاشتقاق. بعث، وتجديد، واحياء، لتنزل بشكل آخر. هنا

تأتي الخطورة في طريقة تعاملنا مع النصوص في الكتاب والسنة. بعضنا يطيش بالنص الذي يسمعه من الراديو أو يقرؤه في أي كتاب أو كذا فيقول: «يا أخي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كذا، حرام عليك تعمل كذا. لكن اذا كان نصا يتعلق بتحريم وتحليل وأوامر ونواهي وكذا، احذر. احرص ما اذا كان هناك اي كلمة اصابها تطور انت غافل عنه. وبالتالي فكل تفسير، أو نظرية تبنيها على ذلك تكون خاطئة. يعني عملية القراءة المعرفية للنصوص عملية ضرورية، وهي جزء اساسي من فكرة اسلمة المعرفة.

اسطورة الموضوعية

كنت أتمنى ان احضر خمسة عشر نصا، واحد لشيوعي مثلا، واحد لبعثي، واحد لليبرالي، واحد لمؤمن بالديقراطية، واحد اسلامي، كل الانواع، ونأخذ منها الاسماء والقضايا ونبدأ بعملية استنطاق النص بعد تحليله، لمعرفة النموذج الكامن.

وبعض الاخوة اشار إلى فكرة الموضوعية، ان المفروض ان يكون الانسان موضوعيا. الموضوعية اسطورة، لا موضوعية البتة، انا الآن اريد ان أكلمك، عندي معتقد، وعندي نموذج، وعندي هدف، وعندي غاية، وعندي بيئة، وعندي ثقافة، وعندي لغة، وعندي مستقبل، وعندي ماضي، الموضوعية اسطورة ضحك بها علينا الغربيون فترة طويلة ليقنعونا بتقبل افكارهم وما جاءونا به. والآن حينما تقبلنا افكارهم وما جاءونا به اكتشفنا ان الموضوعية اسطورة، خرافة، لا وجود لها، هم متحيزون في كل شيء.

نموذج من الجزائر

ذهبت إلى الجزائر فزرت وادياً اسمه وادي «ميزاب»، القرية صغيرة. هنالك مجموعة بيوت قد لا تتجاوز مائتي بيت هناك في الوسط الجامع. كل الطرق تتفرع من الجامع وتؤدي اليه، على يمين الجامع منزل يسمونه منزل «العذابة»، على يساره منزل «للعذابات». فالعذابة والعذابات مصطلح للآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر. يستحيل ان ترى من شباك احد هذه البيوت الناس الموجودين في الصف الثاني. مبنية بطريقة لا تجعل هناك امكانية لبيت ان يشرف على بيت آخر. ما هوالنموذج الذي جعل البناء أو المصمم أو المهندس يصمم بهذه الطريقة ؟ نموذج العورات والحرام والحلال والنظر إلى النساء ووجوب الستر. الخ.

تاثير النموذج الغربي علينا

الغربيون حضارتهم حضارة عريانة اصلا، جذورها الاغريقية وغيرها. احسن الفنون عندهم ما كان عاريا، فهو ابن حضارة عريانة مكشوفة، فيحضر لي الاسمنت، جو حار وزيادة حرارة، ثم يفتح لي شبابيك من كل الانحاء. انا ما عندي وقت يطيب فيه الهواء إلاّ في شهرين في منطقة مثل السودان. الآن مناطق الخليج، تدخل إلى الرياض القديمة، البيوت الطينية التي درجة حرارتها اقل بعشر درجات عن درجة حرارة البيوت الاخرى التي بنيت بعد ذلك. أيها اقرب الى بيئتي ومناخي؟ هو متحيز ضد حضارتي، يريدني ان اشتري اسمنتاً وحديد تسليح.

الضوابط المعرفية

الكتاب الكريم ليس كتابا تستطيع ان تدخله في مختبر وتقيم به تجارب. لكن هذا على مستوى المناهج، على مستوى الضوابط المعرفية الصارمة التي تحاكم كل فنون المعرفة، فالقرآن الكريم يستطيع ان يفعل هذا، لكن ان يدخل معك في تفاصيل مختبرية أو ترجع اليه ككتاب زراعة وصناعة وتجارة لا.

مازق التفكيك في المنهجية المعاصرة

المنهجية المعاصرة دخلت مأزقا كبيرا عن طريق عمليات التفكيك، فمنذ سنة ثلاثين وتسعمائة والف للميلاد فكك الفكر الغربي كل شيء عدا الذات الانسانية. فكك الطبيعة، فكك التاريخ، فكك الدين، جاء إلى التركيب عجز. مثل ولد رأي المفكات فراح على سيارة والده ففككها. أتى ليركب، لم يعرف، فهو فكك كل شيء، بما فيه الدين، وأتى ليركب لم يستطع، فانطلق بشدة إلى ما سماه ما بعد الحداثة، واستمر يفكك حتى فكك الذات الانسانية نفسها، ففكك نفسه، وخرج بنتائج: انه انا الانسان لست اكثر من جسم مادي. ٨٥٪ مني سوائل، لا قيمة لها، ١٥٪ غضاريف وعظام ومواد كيماوية، تستطيع ان تشتريها بكذا . هذه قيمتي. هذا كله كلام فارغ. اذا اردت ان «ابتهج» اشرب كأس خمرة، الشرب مادي، اذا اردت ان اشعر بسعادة افعل ممارسات معينة حسية وسواها، واحصل على اللذة. اريد ان احصل على المتعة بالشيء الفلاني، استمتع، انا ابن الطبيعة.

وجاء اهل الاديان كلهم وحاولوا ان يقنعوه فقالوا انك جسم وروح، انت عقل ونفس، وروح وجسم ومادة وكذا. قال لا انا اصلي قرد. وزني هـذا، لا ثقل، ولا تكاليف، ولا أديان، ولا حلال، ولا حرام، ولا اي شيء من هذا، دعني اعيش مثلي مثل بقية خلق هذا الكون. فماذا كانت النتيجة؟!

التفكك الاسري

الآن اي رئيس امريكي يرشح نفسه اول شعار يطرحه، اريـد ان اعيد لكم بناء الاسرة، اني سأشجع الاسـرة واعيد بناء الاسرة. لماذا ؟ لان الاسرة تفككت.

الشذوذ

شاذان يعشيان معا ويسميان اسرة، ويشاهدان في التلفزيونات يلاعبان بعضا كما الزوج وزوجة، فهذه اسرة ومعترف بها قانونيا، وذمتهم المالية يستطيعون ان يوحدوها. شاذتان تكونـان اسـرة ايضـا. شـاذة منحرفـة وشاذ منحرف يتفقان على الزنا يكونان اسرة منحرفـة تلـد مـن الزنـا او تتبنى لقيط اسرة. ولما جاءوا إلى الدين واسـتنجدوا بـالدين المسـيحي، اذا بالدين مفكك ليس عنده قدرة على التركيب. كنت استمع للراديو قبل فـترة إلى حوار طريف مع قسيس ورباني، والحمد لله لم يكن فيهم شيخ مسـلم، فيقول المذيع للقسيس: أنتم ليس لديكم تمييز عنصري ضد الشواذ وكـذا، ابداً الآن هناك كنائس خاصة للشواذ، فليس عندنا تميـيز، بـالعكس نحـن فتحنا صدورنا لهم.

وقال اشك ان اليهودية قليلا متشددة في هذا الموضوع فالرباني اليهودي انزعج جدا وقال من قال لك تتكلم باسم اليهود ؟ نحن فتحنا اماكن عبادة خاصة للشواذ يمارسون فيها عباداتهم فما حرمناهم من حق العبادة

الحمد لله على نعمة الاسلام! هؤلاء فككوا الدين. الدين لم يعد قادرا على ان يوقف حالة التدهور هذه.

القرآن والتركيب المنهجي

القرآن الكريم مطلوب منه التحدي على هذا المستوى. على مستوى التركيب المنهجي، بعد ان تفكك كل شيء. نحن نعتقد ان القرآن الكريم - اولا - قادر على التحدي على مستوى المنهجية المعرفية، وقادر على الصمود لجميع اختبارات المنهج المعرفي مهما كانت، وقادر على التحدي والاعجاز على هذا المستوى، وقادر على ان يحدث منهجية معرفية قرآنية يمكن ان تعلم الانسان التركيب بعد حالات التفكك.

يقال ان اي فهم للقرآن الكريم، أو لنصوص السنة زائد على فهم اصحاب القرون الثلاثة لا حجة فيه ولا يقبل بحال. كيف نتعامل مع هذه المقولة ؟ وهل فعلا العقل المنهجي الذي يدرك شبكة العلاقات بين الاشياء، فيتجاوز الثنائيات ويبني قواعد وقوانين، ويعرف عمليات التعميم والاستقراء وسواها ما عرفه من سبق؟ دعونا ننظر: نزل القرآن الكريم في تلك المرحلة، وهو نص معجز، خالد، مطلق، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدأ يبين القرآن الكريم للناس، بأقواله، وأفعاله، وتقريراته، وسلوكه،

وادراك الناس للقرآن الكريم وللسنة النبوية، هل نستطيع ان نقوم بعملية تصنيف له ، أو تقييم، أو تحديد لطبيعته، أو محاولة مقاربة؟ حين نراجع تراثنا ونفحص معلوماتنا النقلية أو الشرعية نجد ان التعامل مع القرآن الكريم والتعامل مع السنة النبوية كان تعاملاً يقوم على النظر الجزئي، يعني النظر للآية وحدها ككيان مستقل.

عندما نحاول استنباط حكم من الاحكام، ينبغي ان تجمع آيات اخرى في نفس الموضوع، فتحاول ان تعيد ترتيبها زمنيا لتعرف المتقدمة والمتأخرة. ولتعرف الناسخ من المنسوخ، والعام من الخاص، والمطلق من المقيد، والمجمل من المبين، إلى غير ذلك. القرآن الكريم نقل نقلا متواترا[1]، نقلته الكافة، عن الكافة آلاف عن آلاف، ولا يقبل التلفيق.

موقفنا من المنهجية

هي قضية صارمة غاية الصرامة، فإما أن تخضع القضية المعرفية للمنهج فتكون علمية، وإما أن يرفضها المنهج فتكون اي شيء آخر. نحن الآن نقول ان هذه المعرفة التي جئتمونا بها خاصة في مجال العلوم الاجتماعية والانسانية التي اخضعتموها مؤخرا للعلوم الطبيعية، وفلسفة العلوم الطبيعية، باعتبار ان الانسان ابن الطبيعة وأحد نواتجها وينتمي اليها، ونسيتم نفخة الروح، ونسيتم الملائكة، وغير ذلك. قلنا لكم ان هذه

---

(١) التواتر في اصل اللغة هو التتابع قال لبيد:

يعلو طريقه متنها متواتر   في ليلة كفر النجوم غمامها

التواتر: في اصطلاح المحدثين هو رواية جماعة عن جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب.

العلوم لدينا عليها تحفظ، مهما كان لها من منهجية، ومهما كـــان لهـا مـن معرفية. انتم استبعدتم الوحي ونحن نريد ان نضيف بعد الوحي. سـيقول لي: نعم، انا عندي استعداد ان ابحث في قضيتـك ولكـن شـريطة ان تتقبـل حكم المنهج. المنهج غربال لا يدخل فيه إلاّ القضايا التجريبية، وهـو يحكـم عليها باحكام صارمة جدا، وينتج افكاراً لا تكون إلاّ مادية، ويقوم بعمليات التفكيك والتركيب في دوائر المادة، لا في سواها. فكيـف يمكـن ان اخضعـك بهذا وانت تقول بشيء اصلا انا لا استطيع ان اقاربه منهجيا؟

قضية المقارنة

ماذا فعلت انا في القرن الماضي واوائل هذا القرن كانسان مسـلم؟ فمـن قضايا المقاربة ـ انت وصلت للديمقراطية «حكـم الشـعب بالشـعب...الخ». هذا جيد ولا يتنافى مـع ديـني، ولكـن انـا آخـذ بالشـورى لان هـذا هـو مصطلحي. وهذا هو مفهومي، وهذا هو الذي يتناسب معي وهو لا يختلف عن الديمقراطية، العدالة الاجتماعية، انا آخذها بديـلا عـن الليبراليـة، آخـذ بالاشتراكية ـ ليس عندي مانع، ولكن اسميها اشتراكية عمر بـن الخطـاب. وآخذ بكذا، واخذ بكذا...الخ.

فانفتحت على فكرة في دائرة المقاربـة. الآن انـهزمت. مـا اسـتطعت ان اشيد معارف تخصني، وابرهن عليها علميا، وتكـون مقبولـة. وهـو قـاهر وطاغي ومستبد، وجبار ومسيطر ومهيمن، فانا اكتفيت بالمقاربة عندما بدأ يعترض علي بالمنهج العلمي. وقال لي: قرآنك يقول لي ان هناك جناً، وتؤمن بالجن. الجن انا لا اراه فكيف اؤمن به؟ قلت لـه: ألسـت تـرى ميكروبـات

عندما تدخل المختبر ؟ تكتشف ان هناك احياءً، مرة تسميها ميكروبات، ومرة تسميها جراثيم، ومرة تسميها بكتريا، نعم اعتبرهم هكذا.

حركتنا الاصلاحية في القرن الماضي كلها حاولت هذا. ذلك القرن مضى وهذا القرن على وشك ان يمضي ولم نحقق شيئا. نقارب فحسب، نرفع من مستوانا قليلا ونقول. والله الشورى احسن من الديمقراطية، الديمقراطية فيها عيوب، هؤلاء الامريكان الآن ليس لديهم حرية، العمال والمحافظون في بريطانيا. هذه الديمقراطية لدينا احسن منها ونقارن بأي شيء من الاشياء.

قضية المنهج

طرحنا (اسلامية المعرفة) وقلت نحن لدينا نظام معرفي كامل ونستطيع ان نستبدل كل هذا، طبعا هم الآن مسيطرون وعزلونا عزلا كاملا، ونحن يمكن ان نصيح كما نشاء في داخل بلادنا بإسلامية معرفة اوكفارية معرفة وهو لا ينشغل بذلك، لانه مسيطر على كل الوسائل، مسيطر على كل المقدرات، ويقول: المنهج معي، والعلم معي، والمعرفة معي، وانت اذهب اشرب من البحر[*] فماذا افعل؟ اقول له: هذا حديث رواه البخاري. يقول من البخاري احضره للنقد. ضعه على طاولة التشريح ودعني انقده. تنقده كيف ؟ علماء السلف عندنا نقدوه واختبروه، وانتهينا وهو صحيح. فيقول لك: الصحيح الآن انا افهمه بطريقة اخرى وليس بالطريقة التي كنت

---

* اذهب اشرب من البحر مثل يضرب للاختيار اي افعل ما تشاء فليس لفعلك تاثير .

تفهمها انت قبل عشرة قرون. الصحيح ما رواه فلان عن فلان، هذا لا يعني شيئاً بالنسبة لي، الصحيح ما يخضع لقواعدي المنطقية، للمنطق والمنهج الذي وضعته في هذه الدائرة.

والقرآن الكريم علمنا التحدي، وجاء برسالة تحدي، وجاء باعجاز، هل نستطيع على مستوى العصر المنهجي ان نقابل بمنهجية الرواية والمنهجية الاصولية ومناهجنا الموروثة مناهج هذا العصر ام لا؟ هذا سؤال اطرحه لنفكر فيه معاً، بعضنا يقول نعم، بعضنا يقول بتعديل، بعضنا يقول بغرض آخر.

لكن لا نريد ان يكفر بعض بعضا. المسألة ليست مسألة هذا كافر وهذا منطلق من نموذج علماني وكذا. المسألة مسألة وصول إلى شيء نستطيع ان نتحدى به عصرنا وان نقدم به ديننا. ديننا خالد، ديننا عالمي، كتابنا معجز لكل القرون ولكل العصور، ويجب ان يقدم بهذا الشكل.

الاعجاز المنهجي في القرآن

اذا كان الاعجاز مستمرا ودائما فيجب ان يكون هناك اعجاز منهجي في القرآن الكريم، اليس كذلك؟ القرآن الكريم كتاب لكل العصور، مطلق، معجز، متحدي به إلى يوم القيامة، لا تنقضي عجائبه.

اذا كان تحدي عصر النبوة بالنظم والاسلوب والبلاغة وكذا، فتحدى هذا العصر على مستواه وبسقفه المعرفي في المنهجية. الاعجاز ليس ما يفعله القائمون على امر الاعجاز العلمي. مع تقديري واحترامي وحبي للكثيرين منهم. ليس ان تظهر قضية في الغرب فيقول ان القرآن اشار اليها من قبل.

لماذا لم تكتشفها انت ؟ صار لك اربعة عشر قرنا وانت تقرأ القرآن لماذا لم تفهم؟ هناك كلام كثير حول هذه الامور. يمكن للوعظ للارشاد لتطمئن بعض القلوب، ربما في الدعوة نستفيد من توظيف بعض قضايا الاعجاز العلمي كما يستفيد الواعظ من اي مواد كثيرة، ولكن على مستوى تحدي واعجاز القرآن في المستوى المنهجي نحن نحتاج بشكل عام ان نكتشف ما يعجز المنهج العلمي في دائرة القرآن. الآن المنهج العلمي علمهم كيف يبحثون في وحدة الظواهر المادية، وحدة المادة الطاقة. كيف نستخلص القوانين العلمية. كيف يجري تعميمها؟ الفيزياء كلها تقريبا مبنية على هذا. اهم العلماء الآن في ظل هذه الثورة المنهجية، هم أهل المنهج، وهم اهل التعميمات، وهم اهل التطبيقات. فلما جئنا إلى هذا المنهج اذا به يفرض معالجة نقدية تفكيكية تحليلية بدون استثناء.. قبل ١٩٣٠ فككوا الانجيل توينبي نفسه مؤرخ الحضارة الغربية المعروف يقول: لم اقتنع بان شيئا من هذا الكتاب تصح نسبته إلى عيسى ولا إلى الله. التوراة اثبت علماء يهود ان التوراة الحالية من موروث البابلين وليس من موروث بني اسرائيل، فلا هي توراة موسى ولا تاريخ موسى. ففي عملية تفكيك، جاءوا على القرآن الكريم وايضا فككوا وركبوا وخرجت كتابات استشراقية كثيرة في هذا. وجاءوا للسنة ايضا وفعلوا نفس الشيء.

نحن نقول ان القرآن قادر على التحدي في المنهجية ايضا. منهجية على مستوى المنهج الاعلى، اي مستوى آخر اليوم وبعد اليوم وإلى يوم القيامة. نقولها عن ايمان ونستطيع ان نبرهن عليها ايضا في التفاصيل التي ندخلها. كيف نكتشف المنهجية المعرفية القرآنية التي تتحدى المنهج العلمي التجريبي؟

مقارنة بين موقفين

انا اسمع كثيرا يقال: كله موجود بالقرآن، اذهب فأقرأ جزء قرآن تنل ثواباً، وتحصل على كذا، وكل الذي تريد ولا داعي لهذه الجلبة. هذا القائل قادر ان يتعامل مع القرآن بوضعه بمستواه لا يريد اكثر من هذا، اتلوه فان الله يجزيكم بكل حرف عشرة. فما عنده مشكلة، ما عنده اي معاناة في هذه القضايا، فلذلك لا يحس بها، لكن العالم الغربي الآن يفور يغلي، لتقدمه المعرفي، لتقدمة المنهجي، لتقدمه العلمي، عنده ازمة حقيقة، يبحث ليل نهار، هناك مراكز بحوث تعمل في كل شيء.

الازمة الغربية

كارتر ومفهوم التوبة:

اضرب مثلا بسيطا، الدكتور الفاروقي عليه رحمة الله حكى لنا في عهد كارتر يوم دعاه كارتر هو ومعه عشرة من علماء اديان مختلفة ومنهم مسلمون. رئيس البيت الابيض يجلس يوما كاملا من التاسعة صباحا إلى نهاية الدوام يناقش مع هؤلاء العلماء موضوعا واحدا هو مفهوم التوبة. ما معنى التوبة في الاديان كلها، فكل واحد ادلى بدلوه. ما هي المناسبة للتعرف على التوبة؟ كانت المناسبة ان الامام الخميني ذكر انه لن يغفر لامريكا اساءتها ضد ايران إلاّ اذا تابت، فكارتر يريد ان يفهم ما هي التوبة؟ فيقيم سمنارا ليوم كامل. ويأتي بكل هؤلاء العلماء حتى يفهموه ما هي التوبة؟

توبة الامم

قبل اسبوعين وانا اقود سيارتي واستمع للراديو واذا هناك نقاش حول توبة الامم. هل الامم اذا اخطأت بحق امم اخرى تجب عليها التوبة؟ وكيف تكون توبة الامم والشعوب والحكومات ؟ موضوع لم يخطر على بالنا. انا طالب علم وانتم كلكم طلبة علم هل يستطيع احد ان يتذكر ان هناك كتاباً او كاتباً من كتّاب المسلمين، أقدمين أو محدثين، تناول فكرة توبة الامم والشعوب والحكومات عن اعتداءاتها على امم وحكومات وشعوب مثلاً؟ لا اذكر هذا. انا في حدود علمي لا يوجد، ربما تكون الامم الظالمة ترجع إلى الله، الامم تعود إلى الله، نقولها بعموميات، لكن على وجه التحديد، وكيف تكون التوبة، وماذا يشترط فيها؟

اليابان والتوبة الامريكية

هناك كاتب امريكي كتب كتابا قال فيه: لقد اخطأنا في حق اليابان، قصفنا هيروشيما ونيكازاكي...وكذا. وتبنا إلى اليابان، وقدمنا بعض التعويضات. هل هذا يكفي ام لا ؟ في فيتنام فعلنا كذا وكذا. هل هذا يكفي ام لا؟ وبدأ الجمهور يناقش بالتلفزيون، المتحدث والمذيع الذي يقدم البرنامج. واذكر للأسف الشديد ان كل المناقشين كانوا يهوداً ونصارى، طبعا يقولون العهد القديم قال كذا، والعهد الجديد قال كذا. واليهود بالذات يتكلمون عن توبة بني اسرائيل وكيف هذا الامر مؤصل في تراثهم؟ لماذا البحث الفكري يصل بهؤلاء المفكرين إلى هذا النوع من البحوث ؟ لانه

عندهم ازمة، هناك احساس بأزمة اخلاقية. هذا الشعب العراقي له كذا سنة، هناك اطفال يموتون من الجوع، هناك كذا. هل هذا يعتبر جناية من الشعب الامريكي؟ ام من الحكومة الامريكية؟ ام من الامم المتحدة. هذه مفاهيم تدل على شيء. على وعي، على قضية ما، احساس بأزمة.

الرادار الغربي

كم ندوة عقدنا عن الصحوة في داخل بلاد الصحوة؟ وعدد الندوات التي عقدت في امريكا لدراسة قضايا الصحوة من يوم ان قامت الثورة الايرانية إلى يومنا هذا لا يقل عن ثلاثمائة ندوة ومؤتمر لمختلف مراكز البحوث.

ان الغرب عنده رادار خاص برصد الازمات أو مصادر الازمات وقضاياها المختلفة، يتحرك فورا لانه في سقف ومستوى معين يفرض عليه هذا، لكن وضعنا المعرفي المتواضع يجعلنا غير شاعرين بأزمة، يعني قدرتنا على ان نعيش فيما نريد قدرة جيدة وعالية جدا، ما لم ننفتح على العالم ونشعر اننا جزء منه. الآن لم يعد الجمل جملي. السودان اراد ان يطبق الشريعة منذ عهد نميري، اقام احتفالا لتطبيق الشريعة. وجمع الدنيا كلها. طبقت حدوداً، العالم كله بدأ يتحدث عن ذلك التاريخ وقبله عن ما هي فكرة الحدود في الاسلام؟ يعني يمكن الدراسات التي صدرت عن هذه القضايا ـ الله أعلم ـ لو نحصيها كأوراق في امريكا فأننا نجدها اكثر من كتبنا الفقهية قديما وحديثا، لماذا ؟ لانه عنده رادار الاحساس بالمشكلة ووجوب حلها. يعني ليس لديه استعداد لينام فانه قلق فالازمة الآن في مستوى المعرفة والمهج.

السقف المعرفي المتواضع لدينا

العلـوم الاجتماعيـة باجمعـها، والعلـوم الطبيعيـة باجمعـها، والمنـاهج المعرفية باجمعها. نحن لم نستطع ان نبلور خطابنـا ليكـون خطابـاً قـادراً على الوصول إلى هؤلاء، نحن لم ننجح في صياغة خطابنا الداخلـي فكيـف بخطابنا العالمي، عندما يكون الخطاب متجها نحو نماذج ومناهج فان هـذا يكون فيه عملية تغيير، وعملية التغيير سوف تجد مقاومـة، والمقاومـة لـن تكون سهلة. لذلك فان صياغة الخطاب تعتبر من ادق واكثر الامور صعوبة في مثل هذه الاحوال، فكيف بخطابنا العالمي نحن في سقف معـرفي مـتراجع متواضع؟ وعندما نأتي للمجال العالمي صعب علينا ايضـا ان نصـوغ هـذا الخطاب. والخطاب يجب ان يصـاغ، يجب ان نعيد النظر في صياغة خطابنـا الداخلي ليصبح خطاباً يتحدث على هذه المستويات. لما يقول قادة المسلمين أو بعضـهم (لنعمل فيما نتفق عليه وليعذر بعضنا بعضا فيما نختلف فيـه). لكن نحن متفقون على النموذج الكلي ومتفقون على المنهج الكلـي، وعندنـا اختلاف على نماذج جزئية. فحينما ندرك ان هذه النمـاذج الجزئيـة ليـس عندنا مشكلة. ولكن عندما اضـع الجزئي موضـع الكلي لابد ان تقوم حرب.

من امثلة الفشل في الخطاب الداخلي

كان لنا شيخ مغرم بسنة اللحية لم يكن يطيـق النظـر في وجـه انسـان حليقا، وبمجرد ان يرى حليقاً يغض بصره، كانه ينظر إلى امـرأة، ويقـول له: ألا تدري ان اللحية واجب على المذاهب الاربعة فلم تحلق؟ واذكـر مـرة

انه قال امامي لرجل صالح اعرفه: على أي مذهب انت؟ قال: انا علــى كـل المذاهب، انا رجل مسلم محمدي. قال: لا بل انت على مذهب هؤلاء. وأشــار إلى قاعدة من قواعد الانجليز كانت قريبة من البلد. ويمسك الصابئي فيقول له: يا اخي انت ما شاء الله مطلق لحيتك وهذه اللحية اللطيفة وكذا، ما بقـى لك إلاّ ان تقول «لا اله إلاّ الله» فما بقى لك في الاسلام إلاّ هذه). مــا اتســع صدره لان يقول مثل هذا لمسـلم يخالفـه مثـلا في هـذه القضيـة، ويـؤدي الصلاة والصيام والزكاة والحج. فاذا لابد مــن صياغـة الخطـاب داخليـا وخارجيا لكي نخرج من هذه الحالة المضطربة.



الخاتمة

الحمد لله الاول والآخر الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، قام الصراع بين علماء الطبيعة والكنيسة ـ في الغرب ـ كضرورة تاريخية، وذلك لاسلوب الكنيسة الذي انتهجته في ادعاء الانفراد بالمعرفة واحتكارها، وطريقتها القسرية في التدخل في كافة مجالات الحياة ومسالكها، اذ صبغت كل ذلك بصبغة ميتافزيقية عقيمة وحاولت ان تسكن كل متحرك في سبيل التقدم، رغم انها لا تحرك فيه ساكنا ولاجل ذلك عمل العلماء جاهدين وحرصوا كل الحرص على تقويض النظام اللاهوتي.

وقامت بعد نهاية الصراع المنهجية الوضعية التي تجاوزت الدين، ولم تعتد بغير الحس وعالم التجريب والمختبر، واستبعد الوحي كمصدر للمعرفة.

ورغم ان الصراع كان بين الكنيسة والعلماء الطبيعيين إلاّ ان علماء الانسانيات عدلوا إلى المنهجية الوضعية، واعتبروا المنهج الطبيعي هو السلطة المرجعية، التماسا ـ بذلك ـ لتحقيق العلمية والدقة قدر الامكان وصبغت ـ من ثم ـ كل نواحي الحياة ومختلف العلوم بالصبغة الوضعية، وتقاعس دور الدين وتلاشى إلاّ على الاطار الفردي، وصار سمة ذاتية ومسلكا خاصا.

وفي مقابل ذلك هيمنت الوضعية واصبحت ايديولوجية، فتضخمت العقائد المنهجية، وفقدت المسلمات الكلية، وظهرت الاحالات الفلسفية،

والنسـبية والعدميـة، والعبثيـة، ونهايـة التـاريخ، وغيرهـا. وظـل العـالم الاسلامي ـ لكونه متلقيا للمعرفة من غيره ـ بين تيارات ثلاثة، وهي:

* اتباع خطوات الغرب والاخـذ منـه بـلا ضوابـط بعلاتـه وعلمانيتـه، والاستقاء من فكره بخيره وشره دون تمحيص.

* الشحن من التراث والتفريغ على الواقع رغم ما ينتج من مفارقات.

* محاولة المقاربة والتلفيق.

وكل ذلـك نشـأ لغلبـة النزعـة التقليديـة، دون وجـود نظـام منـهجي للاصلاح والخروج من مستنقع الازمة الفكرية.

ولضرورة وجود نظرة منهجية ظهرت (اسلامية المعرفة) وهي نشـاط فكري ورؤية ابسـتمولجية تسـعى إلى اعـادة المعرفـة بشـقيها الانسـاني والطبيعي، بحيث تقوم على اصول اسلامية، من حيث الاهـداف والنتيجـة والتطبيق، وتحاول رأب الصدع ومعالجة الشقاق الذي حـدث بـين قـراءة الوحي وقراءة الكون، حيث ان الاقتصار على الوحي والاكتفاء به واغماض العين عـن الكـون ادى إلى التخلـف عـن فقـه الواقـع والطبيعـة والحيـاة، والاقتصار على التجربة والحس ادى إلى ما سبق من مفارقات.

وفكرة الجمع بين القراءتين هذه وجدت اشارات لها عند بعض المتقدمين، كالمحاسبي، ومحي الدين بن عربي، كمـا ان الفخـر الـرازي قـد ذهـب في تفسيره (مفاتيح الغيب) مذهبا عمليا في ذلك، فاذن هذه الفكرة ليست بدعـا من النظريات. ولكن لم تلق ما يليق بها من اهتمـام وتعميـق، ولا شـك ان ضرب الصفح عن احدى القراءتين والنظر بعين عوراء نظرة احادية، يؤدي إلى اختلال في الفكر والمنهج، وفي المبدا والغاية والوسيلة والنتيجة، ولا جرم

ان الاسلام يعطي العلوم الاجتماعية المسلمات الكلية، ويعطي العلوم الطبيعية الوجهة والغاية.

ولاشك ان النموذج المعرفي اساسه العقيدة، فاذا اختلت اختل، واذا استقامت استقام، ولاجل ذلك يمكن معرفة النموذج المعرفي الكامن في عقل اي كاتب (اسلاميا كان أو علمانيا أو غير ذلك)، باستنطاق نصه بعد التفكيك والتحليل، فان للجانب المنهجي علاقة مباشرة، بالتفكير العقلي.

وسعيا وراء ما يخرجنا من مستنقع الازمة الفكرية كانت (لاسلامية المعرفة) اطراف نتعامل معها بضوابط منهجية وهي: القرآن والسنة، وتراثنا الاسلامي، وتراث الآخر.

ولا شك اننا في تعاملنا مع هذه الاطراف نحتاج إلى منهج وضوابط، اما فيما يتعلق بتعاملنا مع القرآن فيجب ان نتعامل معه كقرآن له خصائص التكامل والانسجام، ولا نتعامل معه اجزاء مفرقة عضين، فنستنطق بذلك الآية مفردة عن نظائرها وامثالها من نفس الموضوع، حلا لمشاكلنا، فان هذه النظرة الجزئية لا تحقق مقاصد الدين ودلالاته، ولا تقدم مفهوما متكاملا.

كما ان من اهم خصائص القرآن ان عربيته غير عربية غيره، فهي متميزة بكل معاني التميز والخصوصية، ولاجل ذلك كانت اهم وسيلة لمعرفة القرآن وادراك دلالاته ومقاصده هي القرآن نفسه، فاذا اخذ ذلك في الاعتبار، فانه يمكن قراءة القرآن قراءة مفاهيمية تنظر كيف استخدمت اللفظة هنا وكيف استخدمت هناك، ومن ثم ينبثق اطار محدد ودقيق ومفهوم معين في الكلمات، يراعي الوحدة البنائية للقرآن. وذلك مع

الاستفادة من العلوم الموروثة من غير ان نجعلها المرجع الاخير.

ولما كانت السنة مبينة للقرآن وموضحة له، كانت مرتكزا اساسيا وركنا معرفيا ركينا في الدين، وطرفا هاما من الاطراف التي تتعامل معها اسلامية المعرفة، وفق محددات وضوابط، ويكون التعامل مع السنة النبوية المطهرة من نفس الحيثية التي يتعامل بها مع القرآن. وقد نشأت في تراثنا الاسلامي علوم تدور حول السنة، وتحاول ان تنفي عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتقف سدا منيعا لحماية السنة، وهي:

* السند.

* المتن.

اما فيما يتعلق بالسند فقد صرف العلماء المتقدمون جل اهتمامهم فيه، وعملوا على تعديل الرواة وجرحهم، فصار علما دقيقا، ادى دوره الجليل، ووقف حصنا منيعا ضد الوضع والتدليس، ولولا هذا السند لقال من شاء، ما شاء ولكننا اليوم وبعد زوال التحديات، فليس لدينا مبرر في انصراف جل اهتمامنا إلى السند وتعديل الرواة أو جرحهم، وانما يجب ان نلتفت إلى المتن ومعرفة دلالات الحديث ومعانيه، مستخدمين في ذلك الضوابط الهامة في نقد المتن، وعاملين على تطوير هذا الجانب الهام. ولا شك ان اسلافنا قد كانت لهم مجهودات مقدرة، وعلوم تدور حول الكتاب والسنة، فيمكن ان نستفيد من هذا التراث الثر في بناء مناهجنا المعرفية.

وينبغي في تعاملنا مع هذا التراث، ان لا نرفضه كليا، ولا نقبله كليا، ولا ننتقى منه انتقاء عشوائيا، وانما يجب ان يكون تعاملنا معه تعاملا منهجيا لمراجعته، فمسالة المراجعة والاستدراكات عندنا اصبحت امرا لا يمكن

تناوله إلاّ بشق الانفس والتحرج الشديد، وذلك لما رسخ في نفوسنا من تقديس الماضي والركون اليه، رغم ان المراجعة والاستدراكات قد كانت امرا اساسيا في بناء المعرفة الاسلامية، فاستدراكات عائشة على الصحابة، واستدراك العلماء على بعضهم، اظهر من ان تخفى.

وفي تعاملنا مع هذه الاطراف نحاول ان نتلمس طريقا في بناء منهجية متكاملة للعلوم الاجتماعية والانسانية، وفي صياغة هذا المنهج لا ناخذ المنهج الاصولي ونلقي به في حيز العلوم الاجتماعية، غاضين الطرف عن الاختلافات، فللقضية الفقهية خصائصها وللظاهرة الاجتماعية سماتها وخصائصها.

كل ذلك كان محاولات تسعى إلى التعريف باسلامية المعرفة ودواعيها واركانها وابعادها بصورة نظرية عامة، وتحاول ان تتلمس الطريق الامثل لبناء الرؤى المنهجية للتاصيل العلمي، الذي يحاول اخراج الامة الوسطية من ازمتها الفكرية وتراجعها الحضاري، بانجع السبل والوسائل التي تستنهض الامة وتهدف إلى تبلغيها مرتبة الخيرية التي وضعها الله جل شأنه فيها.

ولاجل ذلك تسعى (اسلامية المعرفة) سعيا جاهدا وحثيثا لبناء المنهجية المثلى، للجمع بين القراءتين، والتعامل مع القرآن والسنة، والتراث الاسلامي، والتراث الغربي، وتتخذ العقيدة اساسا للنظام المعرفي، بصورة تحاول ان تصلح الواقع، وتستشرف المستقبل، وتشرأب إلى العلياء. ﴿لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم افلا تعقلون﴾.

وبالله التوفيق وهو المستعان.

المحتويات

الفصل الاول

لماذا اسلامية المعرفة؟

الفصل الثاني

العقيدة اساس النظام المعرفي

الفصل الثالث

الجمع بين القراءتين

الفصل الرابع

منهجية التعامل مع القرآن الكريم

الفصل الخامس

كيف نتعامل مع السنة النبوية

الفصل السادس

منهجية التعامل مع التراث

الفصل السابع

التفكير المنهجي وعلاقته بالتطور العقلي

طه جابر العلواني

* من مواليد العراق عام ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥.
* ليسانس كلية الشريعة والقانون، جامعة الازهر عام ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٩.
* ماجستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الازهر عام ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨.
* دكتوراه أصول الفقه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٣.
* عضو مجمع الفقه الاسلامي الدولي بجدة.
* شارك في تأسيس المعهد العالمي للفكر الاسلامي في الولايات المتحدة عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١.
* رئيس المجلس الفقهي لامريكا الشمالية.
* رئيس جامعة العلوم الاسلامية والاجتماعية SISS في الولايات المتحدة.

آثاره

١ ـ تحقيق كتاب «المحصول من علم أصول الفقه» لفخر الدين الرازي، ستة مجلدات.

٢ ـ الاجتهاد والتقليد في الاسلام.

٣ ـ أصول الفقه الاسلامي: منهج بحث ومعرفة.

٤ ـ التعددية: أصول ومراجعات بين الاستتباع والابداع.

٥ ـ الأزمة الفكرية ومناهج التغيير.

٦ ـ أدب الاختلاف في الاسلام.

٧ ـ اسلامية المعرفة بين الامس واليوم.

٨ ـ حاكمية القرآن.

٩ ـ الجمع بين القراءتين.

١٠ ـ اصلاح الفكر الاسلامي

١١ ـ مقدمة في اسلامية المعرفة. (هذا الكتاب).

كتاب قضايا اسلامية معاصرة

سلسلة دورية تصدرها مجلة قضايا اسلامية معاصرة

رئيس التحرير: عبدالجبار الرفاعي

• اشراقات الفلسفة السياسية	كامل الهاشمي
• الاجتهاد والتجديد	ابراهيم العبادي
• منهج الامام في التفسير	عبدالسلام زين العابدين
• علم الكلام الجديد	محمد مجتهد شبستري
• المدرسة التفكيكية	محمد رضا حكيمي
• اشكالية الاسلام والحداثة	عادل عبدالمهدي
• اسلامية المعرفة	اسماعيل الفاروقي
• اصلاح الفكر الاسلامي	طه جابر العلواني
• جداليات الفكر الاسلامي	ابراهيم العبادي
• فقه التحيز	عبدالوهاب المسيري
• اسلمة الذات	كامل الهاشمي
• نظرية العلم في القرآن	غالب حسن
• القسط والعدل	لمحمد رضا حكيمي واخويه
• مقدمة في اسلامية المعرفة	طه جابر العلواني
• تطور الدرس الفلسفي في الحوزة العلمية	عبدالجبار الرفاعي
• قضايا التجديد	حسن الترابي
• نزعة التغريب	جلال آل احمد
• الدستور والبرلمان	جعفر عبدالرزاق
• الفكر الاسلامي: تطوراته ومساراته	زكي الميلاد
• علم الاستغراب	حسن حنفي
• الاجتهاد التحقيقي	محمد رضا حكيمي
• المستنيرون: خدمات وخيانات	جلال آل أحمد
• أصالة النبوة في حياة الرسول الكريم	غالب حسن
• اشكاليات التجديد	ماجد الغرباوي
• مقاصد الشريعة	طه جابر العلواني